الإسلام والطب

تأليف

محمد عبد الحميد البوشي

تقديم وتحقيق

د. عبد العزيز رضوان

الكتاب: الإسلام والطب
الكاتب: محمد عبد الحميد البوشي
تقديم وتحقيق: د. عبد العزيز رضوان
الطبعة: 2022

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
5 ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية
فاكس : 35878373
http://www. bookapa.com E- mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

البوشي ، محمد عبد الحميد
الإسلام والطب/ محمد عبد الحميد البوشي , تقديم وتحقيق: د. عبد العزيز رضوان
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
137 ص، 18*21 سم.
الترقيم الدولى: 4 – 408 – 991 – 977– 978
أ – العنوان   رقم الإيداع : 26995 / 2021

الإسلام والطب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

الإهداء

إلى كل محب للبحث تواق إلى معرفة أسرار العلوم.

إلى كل شغوف بالتنقيب وراء كل مستور.

إلى الذين يرغبون في معرفة أسرار القرآن الكريم.

إلى كل من خفيت عليه أسرار السنة المحمدية.

إلى كل هؤلاء أهدي هذا البحث المتواضع الذي هداني الله إليه في معرفة ما اشتملت عليه التعاليم القرآنية والسنة النبوية من الحقائق الطبية، ومن يهد الله فهو المهتدي.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

قال صلى الله عليه وسلم:

"إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله إلا السام".

المؤلف

تقديم

إنّ الطبّ رسالة إنسانية شريفة تخُفّف من ألام الإنسان، ولقد كان من تعاليم الإسلام وشرائعه الحضّ على صحة البدن والاعتناء بالصحة، ومن لوازم ذلك التداوي واللجوء إلى الطبيب عند الحاجة والمرض.

ويخبرنا التاريخ أنه قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت ممارسة الطب في الجزيرة العربية أكثر شيوعًا بين العرَّافين وفئة الممارسين المجرِّبين؛ ففئة العرافين اعتمدت على التكهُّن بأسباب المرض وسره وعلاجه، والاستعانة بالنجوم والتعاويذ والسِّحر، وكان لكل قبيلة عرَّاف يرجع إليه أفراد القبيلة فيما يصيبهم من أمراض وعلل وأحداث مختلفة، وكانوا ينزلونه منزلة الكاهن من حيث الاحترام والتقدير.

أما فئة الممارسين المجرِّبين فقد اعتمدت الأساس المادي في التطبيب، فكانت تزاول العلاج بالكي والبتر والفصد والحجامة والحِميَّة والعقاقير والأعشاب الطبية.

ولم تكن الوصفات الطبية سائرة على قوانين طبيعية ولا على توافق الأمزجة مع عقاقير وأعشاب معينة، وكانوا يعتمدون على الكي بالنار كخطوة أساسية في المعالجة حتى أن الكي يكاد يكون الدواء الوحيد في معالجة بعض الأمراض المستعصية.

وعندما جاء الإسلام حارب الجهل والشعوذة، كما حارب الخرافات الطبية التي كانت تعالج الأمراض عن طريق اللجوء إلى التمائم، والتنجيم، والعرافين، والسحرة.

وقد جاء الإسلام وقوَّم وعدَّل وطوَّر ما اعتمدت عليه هاتان الفئتان في ممارستهما للطب؛ فحرَّم السحر والكهانة والعرافة، وحذر الناس منها، واعتبر السحرة والعرافين والكهان من الكافرين، ونهى أيضًا عن استخدام المسكرات، وحثَّ على التداوي، وأعلى من شأن الممارسة الطبية القائمة على التجربة والقياس. وبهذا يكون الإسلام قد فتح الباب على مصراعيه للطب التجريبي القائم على القياس والتجربة.

واعتمد الإسلام على الإيحاء والإيمان في علاج الأمراض، ويكون ذلك من كلام الله أو من خلال الدعاء إلى الله، كما اعتمد الطب في العصر الإسلامي على المعالجة المادية للمرض، وكان من الأطباء الذين عملوا في صناعة الطب مع ظهور رسالة الإسلام الطبيب الحارث بن كلدة الثقفي، والنضر بن الحارث بن كلدة الثقفي، وابن أبي رمثة التميمي الذي كان طبيباً على عهد الرسول العربي الكريم، وغيرهم من الأطباء الذين زاولوا مهنة الطب والجراحة.

وقد كان لوصول التراث الطبي اليوناني إلى العرب في العصر الإسلامي أثر كبير في تطور العلوم الطبية عند العرب، وقد كان لهذا التراث على مصادر منها مدرسة الإسكندرية الطبية وما بقي فيها من تراث علمي يوناني ومؤلفات لعلمائهم وبشكل خاص الكتب التي ألفها جالينوس حيث جمعوها وقاموا بتحقيقها وشرحها ثم لخصوها في ستة عشر كتاباً، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى لعلماء وأطباء آخرون قاموا بترجمتها وشرحها.

وقد لعبت مدرستا الرها وجند يسابور أهمية كبيرة في النهضة الطبية العربية والإسلامية، وقد برز نشاط هذه المدارس الطبية بعد الفتوحات الإسلامية؛ حيث نشطت حركة الترجمة والتعريب من اللغة السريانية إلى اللغة العربية، وهذا ما ساعد على وجود مكتبة طبية باللغة العربية كانت الأساس الذي اعتمد عليه التقدم الطبي في العصر الإسلامي.

لقد اشتغل العلماء المسلمون في صناعة الطب وتكاثر الأطباء في هذا الميدان، وقد ازدهرت الصناعة الطبية في العصر العباسي، حيث وصل عدد أطباء بغداد إلى **860** طبيباً تم امتحانهم لمنحهم الإذن في التطبيب وممارسة الطب ذلك في زمن الخليفة العباسي المقتدر بالله في أوائل القرن الرابع للهجرة، وهذا بالإضافة إلى الأطباء المشهورين ومن كان من الأطباء في خدمة الخليفة، وبالتالي لا يمكن أن يكون مجموع هؤلاء الأطباء اقل من ألف طبيب في فترة زمنية واحدة وفي مدينة واحدة هي حاضرة العلم في العالم مدينة بغداد.

لقد كان ميدان الممارسة الطبية في الدولة الإسلامية مفتوحاً لكل العلماء من شتى الملل والأديان الذين عاشوا في كنف المسلمين، فقد بلغ عدد الأطباء النصارى الذين عملوا في خدمة الخليفة العباسي المتوكل في أواسط القرن الثالث للهجرة نحو **56** طبيباً.

وقد حظي الأطباء بمكانة رفيعة لدى الخلفاء والأمراء، فقد كان فكان سيف الدولة الحمداني إذا جلس إلى مائدة الطعام حضر معه **24** طبيباً، وقد كانت تجزل لهم الرواتب بحسب الاختصاص الذي يمارسونه، فمنهم من كان يأخذ رزقين أو راتبين لتعاطيه علمين أو ممارسته لاختصاصين، ومنهم من كان يأخذ ثلاثة أرزاق لتعاطيه ثلاثة علوم أو ممارسته لثلاثة اختصاصات.

وامتاز الأطباء في العصر العباسي بوجود نظام ينظم ممارستهم للمهنة، وكان للأطباء رئيس يقوم بامتحانهم ويعطي الإجازة بممارسة المهنة لمن يرى فيه الكفاءة في التطبيب والقدرة على ممارسة الطب، وكان من أشهر هؤلاء الرؤساء الطبيب سنان بن ثابت الذي عمل ببغداد، والطبيب مهذب الدين الدخوار الذي عمل في مصر.

وكان من الأطباء الصيادلة من هو مخصص للجنود يرافقهم في أسفارهم، وكان منهم من هو خاص بالخلفاء والأمراء وكانوا يُمنَحون مرتبات خاصة وعُرِفَ هؤلاء الأطباء بالمرتزقين، وكان من الأطباء من يمارسون المهنة على العامة من الناس وهم غير مرتزقين.

الروح والجسد

ومن المبادئ التي قامت عليها حضارة الإسلام، أنها جمعت بين حاجة الجسم وحاجة الروح، واعتبرت العناية بالجسم ومطالبه ضرورية لتحقيق سعادة الإنسان. ومع أنه ليس من مهمات الأنبياء عليهم السلام أن يعلِّموا الناس الطب، ولا القيام بإيضاح العلوم الكونية؛ حيث إن ذلك متروك لجهود البشر وتجاربهم وأبحاثهم العلمية، إلا أنه قد وردت نصوص نبوية بيِّنة تفتح المجال أمام المسلمين ليتعلموا الطب، وليتمرَّسوا فيه، وتهيئ لهم الطريق ليصحِّحوا المسار ويستفيدوا من سابقيهم والنابغين في ذلك المجال.

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوضح أن الأمور الكونية تستند إلى علوم لا تدخل في مهمة رسالته، فإنه صلى الله عليه وسلم كان يشمل هذه الأمور بالتوجيه الخُلُقي الإنساني الرباني، حتى تستخدم لمنفعة الإنسان وصالح الإنسانية ضمن الإطار الأخلاقي، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بالعلاج والتداوي، وكان يأمر بالأمهر في صنعة الطب، وقد روى الإمام مالك أن رجلاً من الصحابة أصيب بجرح، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من بنى أنمار فنظروا إليه، فسألهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيُّكُمَا أَطَبُّ (أي أمهر في الطب)؟ فقالا: أوَ في الطب خيرٌ يا رسول الله؟ فقال: "أَنْزَلَ الدَّوَاءَ الَّذِي أَنْزَلَ الأَدْوَاءَ" يعني الله عز وجل.

ولذلك كان الحكم على من عالج مريضًا فأذاه، ولم يكن معروفًا عن هذا المعالِج أنه ماهرٌ بالطب متمرسٌ فيه، فإنه يتحمل المسئولية عن ذلك، بينما لا يقع ذلك الحكم على الطبيب الذي عُرف عنه الإتقان والمهارة في صنعته، فروى عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ تَطَبَّبَ وَلاَ يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ".

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعالَجَ سعد بن معاذ رضي الله عنه عند السيدة رفيدة، لأنها ماهرة بالطب، مع أن البيئة في ذلك الوقت لم تكن بعدُ ألفت معالجة المرأة للرجال، ولكن لعلمها بالطب وإتقانها له كانت لها هذه المكانة السامية.

الطب النبوي

إن التداوي سنة نبوية مؤكدة لا تناقض بينها وبين مبدأ التوكل على الله والإيمان بالقضاء والقدر يشهد لذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم وفعله وهديه وإرشاده لأصحابه ومعاذ الله أن يقول الرسول صلى الله عليه وسلم أو يفعل ما يتنافى مع التوكل والإيمان بالقدر.

وقد عُرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوي بالعسل والتمر والأعشاب الطبيعية، وغيرها مما عُرف بالطب النبوي، وقد ترك النّبي عليه الصّلاة والسّلام للأمّة إرثًا نبويًّا فيه صلاح النّاس في دنياهم وآخرتهم، ومن بين هذه الإرث النّبوي كان الطّب النّبوي، فقد وردت عن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام عدّة أحاديث حثّت على التّداوي، كما وردت أحاديث في فضل التّداوي ببعض ما خلقه الله تعالى من نباتات أو أعشاب، وقد كانت توجيهات النّبي الطّبيّة شاملة لجميع جوانب حياة الإنسان الصّحيّة ابتداءً من تقرير سنّة التّداوي وأنّه ما خلق الله تعالى من داء إلّا جعل له دواء إلا الموت أو الهرم. كما اشتملت توجيهات النّبوة على جانب الوقاية الصّحيّة ومنها حديث النّبي عليه الصّلاة والسّلام لا يورد ممرّض على مصح، وكذلك حديث الطّاعون، وأنّه إذا سمع المسلمون به في أرض معينة فلا يدخلوها وإذا كانوا في أرض فيها الطّاعون فلا يخرجوا منها، وكلّ ذلك يقرّر قاعدةً صحيّة في غاية الأهميّة وهي الوقاية والحجر الصّحي.

ولم يغفل النبي عليه الصّلاة والسّلام الجانب النّفسي في العلاج، فقد حثّ على زيارة المريض في أكثر من حديث لما لزيارة المريض من آثار نفسيّة طبيّة تعمل على تقوية جهاز المناعة لديه، ففي الحديث (من عاد مريضًا لم يزل في خرفة الجنّة حتى يرجع)، كما أنّ الرّضا بأمر الله تعالى وقضائه يحدث آثاراً عجيبة في نفس المريض قد تخلّصه من مرضه بأمر الله تعالى، فقد دخل النّبي عليه الصّلاة والسّلام مرّة على رجل مريض فقال له طهور إن شاء الله، فقال الرّجل وقد كان كبير السّن بل هي حمى تفور على رجل تزيره القبور، فمن أراد الرّضا وتخلّص من الشعّور السّلبي زاد ذلك من قوّته ومناعته ضد الأمراض بأمر الله تعالى، ومن سمح للشّعور السّلبي والسّخط أن يسيطر عليه يئس وزاد تعبه وألمه. الجانب المادي في الطب النبوي حث النّبي عليه الصّلاة والسّلام على التّداوي بالعسل لما فيه من فوائد عجيبة، كما حثّ على الحجامة وهي إخراج الدّم الفاسد من الجسم وهي نافعة لإزالة آلام الرّأس، كما بيّن النّبي الكريم فائدة الحبّة السّوداء وأنّها علاج لكلّ داء إلا السّام، وكذلك وجّه إلى استخدام الماء لمن يصاب بالحمى مقرّرًا أنّ الحمّى من فيح جهنم فأبردوا عنها بالماء، وكذلك الأكل والدّهن من زيت الزّيتون لما فيه من الفائدة الكبيرة والبركة، وكذلك السّنا والسّنوت وهي السنامكي. والخل الذي وصفه النّبي بقوله نعم الأدم الخل، والتّمر، وحثّ النّبي عليه الصّلاة والسّلام على أن يتصبّح المسلم كلّ يومٍ بسبعة تمرات حتّى لا يضرّه في ذلك اليوم حسد أو سحر، وأخيرًا لعلاج الحزن والاكتئاب أو تخفيف آثاره بتناول التلبينة وهي الشّعير المضاف إليه الماء.

وقد اهتم القرآن الكريم اهتماماً خاصاً بالنظافة الشخصية ونظافة البيئة، فقد حض

القرآن الكريم على أمرين مهمين وهما: الطهارة والوضوء. وفوائد الطهارة الصحية متعددة منها تنشيط الجسم وبث الحيوية فيه، وتخليصه من الأدران العالقة به.

وهناك دراسات عديدة قام بها علماء متخصصون منهم البروفسور فايندوف الذي

اثبت أن الاستحمام الواحد يزيل عن جلد الإنسان أكثر من مائتي مليون جرثومة، ولأن هذه الجراثيم لا تتوقف عن التكاثر، فلا بد من إزالتها بشكل دوري ومستمر.

كما نهى الإسلام عن كشف أواني الطعام والشراب، وأمر بتنظيفها قبل استعمالها وقاية لها من الجراثيم والحشرات والغبار الذي يحمل الميكروبات. ففي الحديث الشريف: "خمروا آنيتكم"؛ أي غطوها.

وهذا الحرص على تجنب الأمراض، والحض على الطهارة والالتزام بالوضوء خمس مرات في اليوم قبل كل صلاة يعتبر نوعا مما يعرف بالطب الوقائي، وهكذا يتبين أن الإسلام اعتنى بصحة الإنسان سواء البدنية أم النفسية والروحية، وهذا كله يفسره الكتاب الذي نقدمه اليوم في "وكالة الصحافة العربية – ناشرون"، وقد استهله المؤلف بفصل عن تاريخ الطب عند الأمم السابقة، وأنهاه بإشارات إلى الإعجاز الطبي في القرآن الكريم، وهو ما كشف عنه الطب الحديث، وبذلك يكون المؤلف قد عالج موضوع الطب في الإسلام، بشكل شامل ومتكامل، وبأسلوب سهل سلس يصل للقارئ العام بيسر، فيزيد الفائدة منه.

د. عبد العزيز رضوان

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم طب القلوب ودوائها، وعافية الأبدان وشفائها، ونور الأبصار وضيائها، وروح الأرواح وسر بقائها، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.

فالطب من العلوم الضرورية في العمران، وقد لازم وجود الإنسان سواء من الناحية الوقائية، أو العلاجية، فأخذت منه كل أمة بقدر استعدادها وحاجتها وظروفها، وما زال هذا العلم يتطور ويتقدم شيئًا فشيئًا حتى وصل إلى ما وصل إليه من التقدم الباهر في عصرنا الحاضر.

وبالإجمال إنه ليس في العالم القديم أمة لم تقبل على صناعة الطب كثيرًا أو قليلًا؛ ذلك لأنه من ضروريات الحياة والعمران.

ولما كان هذا الموضوع يرينا ناحية من نواحي العقلية الإنسانية في سذاجتها الأولى رأينا أن نلم بناحية من تاريخ الطب عند الأمم القديمة قبل أن نتحدث عن الطب ونظرة الإسلام إليه.

المؤلف

الطب عند الأمم القديمة

كان العلاج الطبي قديمًا يقترن بالعبادات والطقوس الدينية، وكان الكهنة ورجال الدين القدماء يمارسون مهنة الطب ويداوون العلل والأمراض المختلفة فضلاً عن وظيفتهم الأساسية وهي وعظ الناس وإرشادهم؛ ولذلك فقد كانوا يتحكمون في أجسام الناس بالإضافة إلى تحكمهم في نفوسهم، وكان الكثير من المعابد تُستخدم أيضًا كمستشفيات وكمعاهد لتدريس علوم الطب للمبتدئين من رجال الدين.

وتشير الآثار التاريخية إلى أن رجال الدين في كل من مصر القديمة، وبلاد الإغريق، وبابل، والهند ظلوا يقومون بأعمال الأطباء والصيادلة منذ نحو عام **4000** أربعة آلاف سنة قبل الميلاد حتى ظهور المسيحية.

الطب عند قدماء المصريين

كان للطب عند قدماء المصريين شأن عظيم، وكان له أقطاب صرفوا العمر في دراسته والتنقيب عن أسراره، وهم أول من وضعوا أساسه وألفوا فيه الكتب، وكان لكل مرض طبيب خاص لا يتعاطى معالجة غيره. حتى إن أبقراط كان يستعين ببرديات مصرية طبية على نحو ما ذكره في كتابه الفصول. وقد عنى الباحثون بأمره أمثال العلامة الأثري أحمد كمال باشا رحمه الله الذي يقول: إن العلوم المصرية كانت مدونة في دائرة معارف رسمية تقع في اثنين وأربعين مجلدًا، وكانت المجلدات الستة الأخيرة منها خاصة بالطب على الترتيب الآتي:

تركيب الجسم الإنساني، الأمراض، الأعضاء، العلاجات، أمراض العيون، أمراض النساء.

وكان فراعنة مصر كلفين بتعلم الطب، وأقدم من ألّف في الطب منهم الملك "تتا" أخو الملك "مينا"؛ وهو أول من ألّف كتابًا في التشريح، جُددت كتابته في عهد رمسيس الثاني الذي حكم مصر في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. ثم من بعده "أنوبيس" ابن الملك مينا، وقد ألف في الطب والصيدلة وترك أربعين مجلدًا طبيًا.

ثم الملك "نيتي" ابن الملك "مينيس" من ملوك الأسرة الثالثة، فقد وضع كتابًا في الطب. وأشهر من ظهر في هذه الأسرة هو الطبيب "جم صيث"، وكانت له شهرة فائقة في فنه، وبراعة عظيمة في علمه بدليل دفنه بما كان يدفن به الملوك وحدهم من مظاهر الإكرام والتبجيل، وجعل قبره بجوار قبر الملك في هرم سقارة، وكان لقبه الرسمي "صاحب الأسرار والأرقام"، ويعتبر في تاريخ قدماء المصريين أول طبيب فرعوني.

وكان جمهور الأطباء من طائفة الكهنة، كما كان الشأن فيما يتعلق بعلم الفلك والشريعة وغيرهما. وكان الطلبة يأخذون العلم عن المعابد؛ وأشهرها معبد منفيس، وطيبة، وسايس، وكانوا يحملون المرضى إلى المعابد لأجل العناية بهم هناك.

وكان للأطباء المصريين بعض الامتيازات مثل إعفائهم من الضرائب، كما كان المرضى يقدمون إلى الأطباء هدايا نظير علاجهم بدل الأجور.

مصدر علم الطب:

كان مصدر علم الطب عندهم أحد أمرين:

الأول: وحي إلهي؛ فقد كانوا يعتقدون أن "توت" إله العلوم هو الذي أوحى علم الطب، وكان يعرف بأنه مستودع الأسرار السحرية.

الثاني: علم ملكي؛ ولذلك كان على الطبيب ألا يتخطى ما في الكتب المقدسة من الأصول تفاديًا من عقوبة القتل.

علم التشريح:

كان علم التشريح متأخرًا جدًا عند قدماء المصريين، وبراعتهم في تحنيط الجثث لم تكسبهم كبير شيء في معرفة أعضاء الجسم الداخلية، لأن المشتغلين بهذه الصناعة كانوا محتقرين جدًا في نظر مواطنيهم، وكان عملهم لا يتعدى استخراج أحشاء جثة الميت المهيأة للتحنيط، وهذا لا يفيدهم شيئًا من حقائق علم التشريح.

وكان قدماء المصريين يعتقدون كغيرهم من الأمم المعاصرة لهم، أن أسباب الأمراض أراوح شريرة تستولي على الأجسام فتمرضها، وكانت مهمة الطبيب عندهم إخراج العامل المرضي من الجسم ثم إصلاح ما فسد منه.

وقد تجمع لدى قدماء المصريين شيء من معرفة خواص بعض النباتات والمعادن، واستخدموا العقاقير كالشراب، واللعوق، والمراهم. وعرفوا الجراحة، والجبائر، والتدليك، والعلاج الطبيعي. وكانت الرقى من أهم أركان الطب عندهم لإبعاد الأرواح الشريرة عن الجسم.

الجراحة:

الأطباء المصريون هم أول من عرف الجراحة في العالم. فقد جاء في أوراق البردي المصرية القديمة أن قدماء المصريين قاموا بإجراء عمليات جراحية يرجع تاريخها إلى ستة آلاف سنة، كما عثر على لوحات مصرية قديمة تصور طريقة إجراء الجراحات في ذلك الوقت.

أول تذكرة طبية "روشتة":

عثر المنقبون في مقابر قدماء المصريين على تذكرة طبية كتبها طبيب مصري، وهي تعتبر أقدم تذكرة طبية عرفها تاريخ الطب، وقد جاء فيها:

"نعطيك أفخر الأطياب مرًا قاطرًا، خمسمائة شاقة، وقرفة عطرة نصف ذلك. ومائتين وخمسين قصب الذريرة، وخمسمائة سليخة، ومن زيت الزيتون هينًا، وتصنع من ذلك كله دهنًا مقدسًا للمسحة".

ليست محاولة معرفة جنس الجنين جديدة، وإنما هي قديمة حاولها قدماء المصريين؛ وذلك بأخذ عينة من بول الأم ومزجها بخليطين أحدهما من البلح والرمل والشعير، والثاني من البلح والرمل والقمح، فإن استنبت القمح كان الجنين أنثى، وإن استنبت الشعير كان الجنين ذكرًا. وإن كان التاريخ القديم لم يحدثنا عن مبلغ صحة هذه المحاولة.

منع الحمل "تحديد النسل":

عملية "تحديد النسل بدأت عند قدماء المصريين، وأنهم استخدموا في ذلك أدوية تشبه إلى حد بعيد الأدوية الحديثة؛ وهي عبارة عن مركب مكون من "عسل النحل، وصمغ عربي"، وهذا المزيج ينتج حامضًا عضويًا يسمى حامض "اللاكتيك" الذي يعتبر الآن من الأحماض الفعالة في منع الحمل.

شلل الأطفال:

سبق الطب المصري القديم العالم في معرفة الإصابة بمرض شلل الأطفال، ففي كثير من المراجع والمتاحف الطبية نجد صورة كاهن منقوشة على جدار أحد المعابد يرجع تاريخها إلى خمسة آلاف سنة، وتظهر الصورة إصابة في ساقه اليسرى مصحوبة بضمور الساق وسقوط القدم إلى أسفل، مما يثبت فوق كل شك أن "فيروس" الشلل عاصرت أجدادنا الأولين من قدماء المصريين.

مرض البلهارسيا:

كشف الدكتور نجيب رياض مدير المتحف الصحي لمدينة القاهرة النقاب عن حقيقة علمية تاريخية كانت تعتبر بمثابة الحلقة المفقودة، وذلك في أثناء اجتماعات المؤتمر الدولي للبلهارسيا. فقد أثبت بالقرائن العلمية أن قدماء المصريين عرفوا منذ خمسة آلاف سنة مرض البلهارسيا، وكانوا يسمونه "ماع"، وعرفوا الدودة المسببة له وكانوا يسمونها "جرون"، وعرفوا وسيلة علاجها وكانت "الأنثيمون".

كما قدم الدكتور حسن كمال ورقة بردي لهذا المؤتمر أثبت فيها أن المصريين القدماء قد اكتشفوا فعلاً هذا المرض وعالجوه بمركبات "الأنتيمون".

شيء من علاجهم:

1- استخدام المصريون القدماء اللحم النيء لعلاج أورام العين "مكمدات".

2- وكانوا يعالجون تعفن الأسنان بتدخين بذور البصل.

علاج تضخم الأوردة:

جاء ذكر هذا المرض وعلاجه في كتاب مصري قديم مكتوب على ورق البردي يرجع تاريخه إلى سنة **1500** ق.م.

طلاء الأظافر:

ذكرت بعض الآثار المصرية القديمة أن عادة طلاء الأظافر بالألوان المختلفة لتجميلها كانت معروفة عند قدماء المصريين، كما كانت منتشرة بينهم على نطاق واسع.

الطب عند البابليين والكلدانيين والآشوريين:

يوجد تشابه كبير بين الطب عند هذه الأمم وبينه عند المصريين، فقد كانت الرقَى والتعزيمات أساس الطب عندهم، كما كان عند المصريين. وكان عندهم أطباء من غير هؤلاء كما كان عند المصريين. وكان البابليون يضعون مرضاهم في الأزقة ومعابر الطرق حتى إذا مر بهم أحد ممن أصيب بذلك الداء أعلمهم بسبب شفائه وكيفية توصلهم إليه. وكانوا يكتبون أسماء العقاقير أو الوسائل التي يحصل بها الشفاء على ألواح يعلقونها في هيكل شيدوه على اسم إله الطب عندهم؛ فكانت تلك الألواح أول كتاب عندهم كُتب في علم الطب.

أما الكلدانيون والأشوريون فكانوا من طائفة السحرة، وكانت قوتهم كلها تنحصر في هذه الصناعة، فكان جل اهتمامهم موجهًا إلى معالجة المريض بالرقى، ولكنهم مع ذلك كانوا يصفون له تعاطي بعض الأعشاب. وكانت عقيدة الكلدانيين أن الناس محاطون بالأرواح من جميع الجهات منهم الطيب والخبيث، والطائفتان في حرب مستمر. والأمراض تعزى إلى الأرواح الشريرة الخبيثة.

الطب عند الصينيين:

يقول مورخو الصينيين إن الطب ظهر عندهم منذ زمن بعيد جدًا، ويقولون إنه كانت لديهم حدائق لتربية النباتات الطبية قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة. وإن الإمبراطور "هوانج تي" ألّف لهم كتابا في الطب حوالي سنة **2600** ق.م، وهذا الكتاب باقٍ عندهم إلى اليوم، وقد استفاد الأوربيون من معارفهم الطبية؛ فقد ذكر القس "روهالد" الأطباء الصينيين وأثنى عليهم، وأن العالم "بوردو" أخذ مباحثه في النبض عند الكتب الصينية.

وكان أكثر اهتمام الصينيين موجهًا إلى اتفاق علم المادة الطبية وكتابهم المسمى "نبتاد" يذكر **1100** مادة ويسرد خصائصها العلاجية، وهو يعتبر كنز المادة الطبية العلمية عندهم.

الطب عند الهنود:

انتقلت صناعة الطب من البابليين رأسًا إلى الهند والفرس وغيرهم من الأمم الشرقية. وكانت صناعة الطب بين الكهنة البراهمة من الهنود. وقد اعترف اليونانيون القدماء أيام مدنيتهم بأن الطب الهندي أرقى من طبهم، فقد تكلم أبقراط كثيرًا عن علاجاتهم، وكان "تيوفراست" يذكر أعشابًا كثيرة طبية أخذها عنهم.

وكانت أركان الطب قائمة عند الهنود على قواعد وهمية وتشهد بذلك كتبهم الدينية والطبية، فهي ملأي بالتعزيمات، والرقى، والوصفات السحرية. وفي كتابهم المسمى "ريجنيدا" تنويه بخصائص شفائية لأعشاب كثيرة، ونجد بجانبها دعوات تتلى لإزالة كثير من الأمراض وهذه الدعوات يجب أن توجه أولًا وبالذات لآلهة الشفاء. ثم ظهر بعد ذلك العلم الطبي بمعناه الصحيح على يد جماعة البراهمة أنفسهم، أما زمن ظهور ذلك العلم عندهم فمما لا يستطاع تحديده وتعيينه. ولكنه مع ذلك لم يخل من الاختلاط بعقيدة الأرواح الشريرة.

الطب عند الإسرائيليين:

كان الطب عند الإسرائيليين محتكرًا عن رجال الدين، ولم يكن علم التشريح معلومًا لديهم لأن دينهم كان يحرم التشريح، بل كان الإسرائيلي لا يستطيع أن يلمس جثة إنسان ميت أو حيوان وإلا اضطر أن يتطهر. أما عقيدة اليهود في الأمراض فكانوا يعتقدون أنها عقوبة مرسلة من الله تعالى؛ فإذا انتشر الطاعون مثلاً بينهم قالوا: إن ذلك نتيجة عصيانهم للأوامر الإلهية؛ وكان ينذر بعضهم بعضًا بفشو الأمراض كلما نقضوا الناموس الإلهي، وكان ذلك يقوم مقام الإنذار بالعذاب الأخروي الذي كانوا ينوهون عنه في مواعظهم، ومع كل ذلك فقد كانوا يعزون بعض الأمراض لأسباب طبيعية كتراكم الصفراء، أو فساد الهواء، أو تغييرات الجو، أو عصيان قانون الصحة، أو حلول عفريت بالجسم لأدواء لإخراجه بالرقى والتعزيمات. وقد وجدت بالتلمود "وهو كتاب الشرع اليهودي مبادئ علمية طبية لسير الأمراض، وتشخيصها، وغير ذلك.

الطب عند الفرس:

انتقلت صناعة الطب من البابليين إلى الفرس كما انتقلت إلى الهند. ويرجع تاريخ الطب عند الفرس إلى القرن الرابع قبل المسيح عليه السلام، وأصوله الأولية مذكورة في كتابهم المسمى "زندافستا"، وهذا الكتاب أحدث عهدًا من كتاب الفيدا الهندية المقدسة، والذي يختص بالطب من كتاب "زندافستا" هو الفصل الذي عنوانه "فنديداد" تحت عنوان "فرجاد"، ومع ذلك فقد كان الطب عندهم خليطًا من التعزيمات والرقى، وشيء من المبادئ الطبية العلمية. وعندهم أن إله الشر "إفريمان" أطلق جميع الأمراض وسلطها على الناس، وعارضه في ذلك إله الخير "أرموزد"، وعلم الناس جميع الأدوية الضرورية لحفظ صحتهم.

الطب عند اليونانيين:

يعتبر اليونانيون هم الذين اجتازوا الشهرة في علم الطب، لأنهم هم الذين بوّبُوه ورتبوا أبوابه. ولم يبدأ الطب عندهم بحياة "أبو قراط"، بل كان موجودًا قبله بدليل أنه كان ينقل عن مؤلفات سابقة على عهده لم يصل إلينا منها شيء. وقد كان الطب عندهم في مبدأ تكوينه سحريًا، ووسائله الرقي والتعزيمات.

وكان الطب عندهم من الصناعات السرية التي يحرص عليها رجال الدين، وكانوا يتناقلون هذه الصناعة تلقيًا يتوارثها الأبناء عن الآباء؛ ولذلك فإنها كانت محصورة في بعض أسرهم دون سواها. وكان المريض ينقل إلى المعبد حتى يزوره فيه إله الطب في زعمهم، ويرى المريض في ليلته تلك من الرؤى ما يدل تعبيرها على دائه ودوائه.

ويعتبر "أبقراط" – أبو الطب عند اليونانيين– ظهر في القرن الخامس قبل الميلاد، وقد استطاع أن يُخلّص علم الطب مما كان قد اختلط به من الشعوذة وعقيدة الأرواح الشريرة، وبوبه ورتب أبوابه في كتبه الطبية التي ألفها. ويروى عنه أنه قال لأحد المرضى ممن كان يعالجهم: "أنا وأنت والعلة ثلاثة؛ فإن أعنتني عليها بالقبول لما تسمع مني صرنا اثنين وانفردت العلة فتقوينا عليها، والاثنان إذا اجتمعا على واحد غلباه".

وظهر بعد أبقراط أطباء عديدون بذلوا لعلم الطب معظم أوقاتهم في معرفة الأعشاب وتأثيرها على الجسم وآثار الأهوية. ولم يهملوا النظر في أدوار الأمراض ومضاعفاتها حتى بلغوا شأوًا بعيدًا. ومن أشهرهم فيثاغورث، وفيمليمون، ورفى، واندروماخوس. كما ظهر في مدرسة الإسكندرية التي أسسها بطليموس الأول والثاني "جالينوس"؛ وكان يعتبر أنبغ طبيب ظهر في هذه المدرسة، وهو الذي سُئل: مالك لا تمرض؟، فأجاب:

لأني لم أجمع بين طعامين رديئين، ولم أدخل طعامًا على طعام، ولم أحبس في المعدة طعامًا تأذيت به.

الطب عند الرومانيين:

لما قامت الدولة الرومانية انتحلت الطب اليوناني مختلطًا بكثير من الخرافات، أما الطب بمعناه العلمي الصحيح فلم يصل إلى الرومانيين إلا على يد الطبيب اليوناني "أوكا جانوي" سنة 192 ق.م. فإنه عندما وصل إلى روما قوبل باحتفاء كبير، ولكنه لم يلبث أن سقط إلى الحضيض لخطئه في بعض الأعمال الجراحية.

ثم جاء من بعده أطباء آخرون من اليونان أيضًا ثبتوا أصول العلم الطبي، وازدهر أمر الطب بعد ذلك. ولم يحدثنا التاريخ عن الذين اشتهروا من أطباء الرومان أنفسهم قديمًا. وعن اليونانيين والرومانيين انتقلت صناعة الطب إلى الأمم الأوروبية الحديثة.

وبعد:

فهذه كلمة مختصرة عن تاريخ الطب عند هذه الأمم، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كُتب في هذا الموضوع في مجلة الهلال الأعداد الأولى، وكتاب نزهة الأبصار وتنوير الأنظار للدكتور حسين رفائي في تاريخ الطب القديم، وما كتبه أحمد كمال باشا العالم الأثري عن الطب القديم.

الطب عند العرب قبل الإسلام:

كان العرب قبل الإسلام يعرفون شيئًا عن العلاج والوقاية من الأمراض؛ إما عملاً بالاستقراء، وإما اقتباسًا ممن كانوا يخالطونهم. لأن العرب لم يكونوا محصورين في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام، ولكنهم اتصلوا بالفينيقيين، وسكان آسيا الصغرى، والجزيرة، والبابليين، والهنود، والفرس، والسريان.

كما هاجر إليهم يهود من أقطار مختلفة وكانوا على صلة بالعلوم فتعلم الطب عنهم من العرب الجاهليين أفراد إشباعا لشهوة علمية، ولكنهم لم يستطيعوا نشر ما عرفوه في أمتهم لانصرافهم عن غير ما ألفوه. وللعرب في جاهليتهم علاجات وعقاقير اشتهروا بها، وما زال بعضها جاريًا في بلاد العرب وغيرها إلى الآن مثل الكي بالنار، والحجامة، وغيرهما.

وفي بعض القبائل العربية كان العلاج يقوم به الكاهن أو العراف اعتمادًا على الفراسة؛ وهي الاستدلال بهيئة الإنسان، أو شكله، أو لونه، أو أقواله على معرفة حالته، ثم محاولة علاجه إما بأقوال مأثورة، أو أساطير محفوظة، أو أسجاع منقولة. وفي أحوال أخرى يكون العلاج بأمور لا تمت إلى الطب بصلة نتيجة تجربة مصادفة تحقق فيها الشفاء مرة بغير سببها. فمثلاً إذا ثبرت شفة الصبي حمل منخلا على رأسه ونادي بين بيوت الحي "الحلا. الحلا"، فتلقى النساء له صدقات في منخله، فإذا ألقى الصبي ما في منخله من خبز ولحم للكلاب فأكلته شُفي من مرضه.

كما كان السحر عندهم، والشعوذة، والطلاسم، والتمائم من وسائل العلاج. وقد امتاز بعضهم بمعاطاة هذه المهنة من قديم الزمان فعرفوا بالأطباء، وما برح العرب يتحدثون بهم ويتمثلون بأقوالهم.

أشهر أطباء العرب في الجاهلية

1- لقمان الحكيم:

وهو أقدم من اشتهر بالطب عند العرب، وهو الذي تحدث عنه القرآن الكريم وكُتب التاريخ وهو حكيم العرب وفيلسوفهم. وإن كان في أصله وزمن وجوده وصناعته اختلاف كثير، وقد أدرك داود عليه السلام وأخذ عنه العلم، وعاش ألف سنة. وهو ابن أخت أيوب عليه السلام، وقيل ابن خالته. قيل كان عبدًا حبشيا، وقيل كان سودانيًا. وكانت صناعته الأصلية نجارًا، وقيل خياطًا. وكان حكيمًا، وقيل نبيًا. واختار الألوسي في تفسيره أنه رجلًا صالحًا حكيمًا ولم يكن نبينا.

ولقد حدثنا القرآن الكريم عنه حكيمًا ومرشدًا قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾. وقال:﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾.

وقال: ﴿يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ* وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾

ومن كلامه في الطب:

كل داء حسم بالكي آخر الأمر، وآخر الدواء الكي.

وقال يوصي ابنه: يا بني، إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة. يا بنى لا تأكل شبعًا على شبع، فإن إلقاءك إياه للكلب خير لك من أن تأكله.

ومن قوله لمولاه وقد دخل بيت الخلاء فأطال فيه الجلوس فناداه وقال له: إن طول الجلوس على الحاجة ينجع منه الكبد، ويكون منه الباسور، ويصعد الحر إلى الرأس؛ فأجلس هوينًا وأخرج.

ومن أراد المزيد من حكمه وإرشاداته فليرجع إلى كتب التفسير والحديث والتاريخ؛ فسيجد من بليغ إرشاداته الطبية، والدينية، والخلقية، والاجتماعية، والتهذيبية.

2- ابن حزيم:

هو من يتم الرباب، وقد اشتهر بين العرب، وكان يضرب به المثل في الحذاقة في الطب فيقولون لمن أرادوا وصفه بذلك: هو أطب من ابن حزيم.

وفيه يقول أوس بن حجر:

فهل لكم فيها إلى فإنني بصير بما أعيا النطاسي حزيما

3- الحارث بن كلدة:

وهو من أهل الطائف من بني ثقيف، وهو أبو النضر ابن الحارث الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله، وسيد سمية أم زياد ابن أبيه.

وقد رحل الحارث إلى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل (جنديسابور) وغيرها، وتعاطى صناعة الطب هناك واكتسب مالًا كثيرًا، ثم عاد إلى بلاده وأقام في الطائف ونال شهرة عظيمة. وقد أدرك الإسلام وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من به علة أن يأتي الحارث، فيسأله ما به من علة كسعد بن أبي وقاص حين أصيب في بعض الغزوات.

ومن مأثور كلامه في تعاطي العقاقير، وأنه لا يجوز تناولها إلا إذا دعت الضرورة، وقد قال: (ما لزمتك الصحة فاجتنبه، وإن هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استفحاله)، ومنه (من سرّه البقاء – ولا بقاء– فليباكر الغذاء، وليخفف الرداء، وليقل من غشيان النساء).

ومن كلامه الذي يعتبر دستورًا في الصحة قال:

(الداء الدوى إدخال الطعام على الطعام، فهو الذي يفني البرية، ويهلك السباع في جوف البرية. وإياك والتخمة فهي إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت. وإياك ودخول الحمام شبعانًا، والنوم بالليل عريانًا، والعقود على الطعام غضبانًا. وأرفق بنفسك يكن أرخى لبالك، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك، وعليك بالحمية والاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ويسد مسامها). وقد مات الحرث في أول الإسلام سنة 13هـ ولم يصح إسلامه.

4- الشمردل بن قباب الكعبي:

كان من أهل نجران، وكان على علم بالطب، وقد سمع بالنبي صلى الله عليه وسلم وأنه يعلم شيئًا من الطب فأتاه ليقف على مقدار ما بلغه، فأخذ يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن بعض الأمراض وعلاجها، فكان النبي عليه السلام يجيبه عن كل سؤال. ثم سؤاله الرسول عن بعض الأمراض وعلاجها فبهت ولم يحر جوابًا، فلما تحقق الشمردل من صدق ما بلغه قال: يا محمد، والذي بعثك بالحق لأنت أعلم مني بالطب، ثم أسلم بالحق لأنت أعلم مني بالطب، ثم أسلم وحسن إسلامه.

5 - ابن أبي رمثة التميمي

وكان معاصرًا للحارث بن كلدة، وقد أسلم وحسن إسلامه وشهد بدرًا وأخذ فيه أسيرًا.

أمثلة من علاجهم:

"كان الاعتقاد السائد عند العرب أن الأمراض على اختلاف وتباين أعراضها يرجع سببها إلى نقص بعض مواد مجهولة تفرزها مختلف الأعضاء. فإذا حل مرض بعضو من الأعضاء عولج بتناول عضو مماثل له، أو بخلاصته؛ فكانوا يصفون خلاصة الطحال لعلاج أمراض الطحال، والقلب علاجًا لأمراض القلب مثلاً.

وإلى مثل هذا المعنى يشير أمير الشعراء أحمد شوقي على لسان مجنون ليلي حينما قدمت إليه شاة ليأكل منها ولم يجد بها القلب فقال:

وشـــاة بلا قلب يـداوونني بها وكيف يداوى القلب من لا له قلب

1- علاج حَوَل العين: كانوا يعالجونه بإدامة النظر إلى حجر الرحى في دورانه، ويزعمون أن العين تستقيم به.

2- الخدر: كانوا يعالجون خدر الرجل بأن يذكر الإنسان أحب الناس إليه. وفي هذا يقول شاعرهم:

رآني الله يا ســـلمى حيـاتي وفي يوم الحســـاب كمـا أراكِ

إلى كم تهجرين فتى معنّى إذا خــدرت لــه رجــل دعــاك

وبقي علاج الخدر فيهم هكذا حتى جاء الإسلام، فقد روى الإمام النووي في كتابه الأذكار عن مجاهد قال: خدرت رِجْل رجُل عند ابن عباس رضي الله عنهما، فقال ابن عباس اذكر أحب الناس إليك، فقال: محمد صلى الله عليه وسلم، فذهب خدره.

وروى عن الهيثم بن حنشي قال: كما عند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فخدرت رجله، فقال له رجل أذكر أحب الناس إليك، فقال: يا محمد، فكأنما نشط من عقال.

وكان أهل المدينة يعجبون من حسن بيت أبي العتاهية.

وتخدر في بعض الأحايين رجله فإن لم يقل يا عتب لم يذهب الخدر

3- الاستسقاء: كانوا يحفرون للمريض به حفرة في الأرض عمقها ثلاثة أقدام، وطولها عشر، وعرضها قدمان، ويوقدون في تلك الحفرة نارًا من الصباح إلى المساء، وفي المساء يخرجون النار منها ويجعلون فيها ترابًا، ثم يجردون المريض من ثيابه ويرقدونه بتلك الحفرة ويغطون جسده بالتراب إلا رأسه، ويبقى كذلك للصباح فيخرجونه وقد خرج منه الماء وأصبح سليمًا.

الطب في الإسلام

حض الإسلام العرب على التعلم والأخذ بأسباب النهوض والارتقاء، فلم يدع المسلمون شيئًا بعد قيام دولتهم يمكن تعلمه إلا أخذوه، وحذقوه، وزادوا عليه. ولم ينته القرن الثاني حتى كانت بلادهم مطمح أفكار المستنيرين في كل فرع من فروع العلوم؛ ومنه الطب الذي برزوا فيه وأوصلوه إلى درجة من السمو لا يزال معها محل إعجاب الأطباء المعاصرين.

تقول الدكتورة "شوارتزهبت" وزيرة صحة جمهورية ألمانيا الاتحادية في افتتاح المؤتمر الدولي للبلهارسيا بالقاهرة: إن الغرب لن ينسى أبدًا أنه مدين للعرب بدراسة الطب، وأن مؤلفات ابن سينا، والعباس، والرازي كانت هي الكتب الوحيدة التي تدرس في جامعة "باليرمو" التي كانت تضم أشهر مدرسة للطب في العالم الغربي، وكانت هذه الكتب قد ترجمت إلى اللغة اللاتينية.

ولقد بدأت جميع الأمم عهد التطبيب بالخلط بين هذه الصناعة والعقائد الخرافية كما بيّنا، إلا الأمة الإسلامية فقد بدأتها على ما هي عليه اليوم من الاستقلال الفني والدستور العلمي، وهذه ميزة من الميزات الإسلامية الكثيرة، وهي من أكبرها شأنًا في رأينا نظرًا لإجماع الأمم القديمة على الخلط بين الطب، والروحانيات، والشعوذة.

نعم إن عامة الأمة الإسلامية في عصور بعيدة وقريبة أخذوا أخذ الأمم الأخرى في هذا التخليط عن طريق العدوى التي انتقلت إليهم من الأمم الأخرى. ولكن خاصة المسلمين المتعلمين ظلوا أوفياء لدينهم، فلم يقعوا في هذا الوهم؛ ذلك أن الدين الإسلامي جرد علم الطب من خرافاته، وفرض على الآخذين به جميع الأصول التي يعتبرها الطب الرسمي اليوم من التمييز بين الطب المقرر المستمد من العلوم والتجارب، وبين الدجل الذي يدّعيه بعض الناس لاستدرار أموال الناس بالباطل.

ويعتبر الإسلام أول من قرر مسئولية من يدّعى الطب، وأنه ضامن. ففي الحديث الشريف: "من تطبب ولم يعلم منه طب فهو ضامن"؛ أي مطالب بما يحدث من ضرر بالمريض، وهذا بلا شك مبدأ يستند إليه في تحريم مزاولة الطب على غير الذين درسوه.

كما حرم الإسلام لبس الطلاسم والتمائم إلا على الأسباب المعروفة، وبعدًا عن وساوس الأقدمين وخرافاتهم. ولا يضير الإسلام وجود هؤلاء بيننا الآن، فأوروبا وأمريكا وغيرهما لا تخلو من أمثال هؤلاء مع بلوغ الطب عندهم درجة لا تبارى.

فضل العرب في ارتقاء مهنة الطب:

"يرجع الفضل إلى العرب في رفع كرامة مهنة الطب، وتنقيح تعاليمه القديمة، وإضافة مزيد من التجارب العملية الدقيقة إليه. ولقد بلغ من ارتقاء ثقافة الطبيب في ظل الدول الإسلامية أنه كان يشترط فيه الإلمام بأصول الدين، والفلسفة، والفلك، والموسيقى، علاوة على إلمامه بالعلوم الطبية. كما أن الغرب مدين للعرب بإدخال نظام اختبار الأطباء قبل التصريح لهم بمزاولة مهنة الطب.

ومما ساعد أيضًا على ارتقاء العرب بعلوم الطب نهوضهم بعلم الكيمياء للإفادة به في مجال الطب، واختراعهم فن الصيدلة، وتحسينهم فن تركيب الأدوية بما أدخلوه من المستحضرات اللطيفة الحلوة المذاق، وما أدخلوه من المستحضرات العربية مثل الكحول، والكافور، والقرنفل، والزئبق، والمر، والعنبر، والمسك، والجلاب، والسناء المكي، وغيرها.

وما عرفوه من إمكان التخدير بالاستنشاق واستعانوا به في جراحتهم".

محافظة الإسلام على الجسم والعقل:

اهتم الإسلام بسلامة الجسم والعقل، فأمرنا بالمحافظة عليهما ونهانا عن تعريضهما لما يضرهما. قال تعالى:﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾. وقال:﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾.

وجعل الإسلام من القواعد المقررة أن كل ما أضر بالجسم أو العقل فهو حرام. وعلى هذا المبدأ حرّم الإسلام الخمر، والحشيش، والأفيون، والزنا، واللواط، والاتصال بالمرأة في الحيض والنفاس، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، والطعام المتعفن، والشرب من الماء الآسن.

كما نهى عن تلويث الماء، والمكان المطروق، والظل الذي يجلس الناس فيه مخافة انتشار العدوى. ففي الحديث "اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل".

وفي حديث آخر: "لا تبولوا في الماء الراكد ثم تتوضؤوا منه"، وقد أثبت الطب الحديث أن تلك الأمور تعرض للإصابة بأمراض مختلفة وهي التي تسمى في لسان الطب بالأمراض المتوطنة: كالبلهارسيا، والانكلستوما، والدوسنتناريا، والكوليرا، والتيفويد، والرهقان.

كما نهى الإسلام عن كشف أواني الطعام والشراب، وأمر بتنظيفها قبل استعمالها وقاية لها من الجراثيم والحشرات والغبار الذي يحمل الميكروبات.

ففي الحديث الشريف: "خمروا آنيتكم"؛ أي غطوها. وقال عليه الصلاة والسلام: "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب". وسنعرض لهذا الحديث بتوسع عند الكلام عن الطب النبوي.

أمراض القلوب:

دعا الإسلام المكلف إلى معرفة أنه جسم وروح وقلب، وأنه بذلك من عالمين مختلفين وإن كانا ممتزجين. وطالبه برعاية جسمه والمحافظة على طهارة قلبه، وأبان له أن للقلب أمراضًا تختلف شدة وضعفًا، كما أن للجسم أمراضًا تختلف شدة وضعفًا كذلك، وطالبه بالمحافظة على جسمه وقلبه من تلك الأمراض، وشخّص له الداء وأرشده إلى الدواء حتى لا يكون في ضلالة ولا يتخبط في جهالة.

يقول ابن القيم في كتابه زاد المعاد: مرض القلوب نوعان: مرض شُبهَة وشَكّ، ومرض شهوة وغي، وكلاهما في القرآن قال تعالى في مرض الشبهة: ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾. وقال: ﴿ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾. وقال: ﴿ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ* أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا ﴾.

وقال تعالى في مرض الشهوة:﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾. فهذا مرض شهوة الزنا، وطب القلوب مسلم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم. فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها، وبأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه. وأن تكون مؤثرة لمرضاته، ومحابة متجنبة لمناهيه ومساخطه، ولا صحة لها ولا حياة البتة إلا بذلك، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل عليهم السلام.

علاج أمراض القلوب:

ليس المراد بالقلب هنا قطعة اللحم الصنوبرية الشكل التي تمثل مضختين ماصتين ومضختين كابستين لجذب الدم من القلب وتوزيعه على الجسم، وبالعكس. وإنما المراد بالقلب تلك اللطيفة الربانية التي أودعها الله الجسم البشري المستعدة لتلقي العلوم والمعارف، وتوجيه الجوارح إلى ما ينيط بها من عمل. وهي التي يعبر عنها في بعض الأحايين بالروح، أو النفس، أو الفؤاد.

وإن أشد أمراض القلوب الشرك بالله، وقد وصف الإسلام لهذا الداء علاجه ممثلاً في كلمة خفيفة على اللسان، محببة إلى الرحمن؛ وهي الشهادة: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". وهناك أمراض أخرى تأتي في المرتبة الثانية بعد هذا الداء، وهذه الأمراض تنحصر في نوعين:

الأول: ما يسمى في لسان الشرع بالكبائر: مثل قتل النفس، والزنا، والسرقة، والحقد، والغيبة، والنميمة، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وغير ذلك مما توعد الله عليه بالعقاب الشديد. وقد وصف الإسلام لهذه الأمراض العلاج في واحد من ثلاثة:

التوبة، والاستغفار، والحج المبرور.

الثاني: ما يسمى في لسان الشرع بالصغائر: كالنظرة، واللمسة، والقبلة للمرأة الأجنبية، والسب والشتم. وقد وصف الإسلام لهذه الأمراض العلاج في عدة أدوية منها.

1- اجتناب الكبائر: قال تعالى:﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾.

2- الصلاة والصوم: ففي الحديث الشريف: "الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر". وفي حديث آخر: "من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه".

3- الوضوء، والصدقة، وسائر الحسنات قال تعالى:﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾.

وفي الحديث: "واتبع السيئة الحسنة تمحها".

السعي على العيال:

ففي الحديث: "إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها صوم ولا صلاة ولا جهاد، وإنما يكفرها السعي على العيال".

الطب الوقائي لأمراض القلوب:

ومع عناية الإسلام بالطب العلاجي لأمراض القلوب لم يهمل ناحية الطب الوقائي لها، فقد جعل لها طبًا وقائيًا ممثلا فيما شرع من تعاليم وأوامر.

الوضوء:

حركة الوضوء يقصد منها – فوق النظافة الحسية– الاستعداد للصلاة، فلكي يتهيأ الإنسان للصلاة ويقف بين يدي الله خاشعًا يجب أن يعد ذهنه لذلك، ويتخلص من شواغل الحياة الكثيرة بالوضوء الذي يحمله على أن يستريح زمنًا قبل الصلاة ليستجمع قواه العقلية، ويعد نفسه للخشوع أمام الله ويترك شواغل الدنيا. وهذه حكمة من حكم الوضوء حيث يساعد على ترك التفكير الأول، ويعطيه الوقت الكافي ليبدأ في تفكير من نوع آخر.

الصلاة:

الصلاة توقظ القلب والضمير، وتحمل الإنسان على عمل كل خير وتبعده عن كل شر. وهي وقفة ربانية روحانية، ومناجاة من العبد لربه في خشوع، وخضوع، وذلة، وانكسار، وتجرد من جميع شواغل الدنيا؛ فتتولد عنده المراقبة لله، والخوف منه، والبعد عن كل ما يغضب الله قال تعالى:﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾.

الصوم:

الصوم رياضة روحية، وتهذيب خلقي، وتربية لملكة الصبر، والأمانة، وقوة الإرادة، والخوف من الله. فيتولد عند الشخص خلق الحياء، والحياء خير كله يمنع صاحبه من الوقوع في أي فعل يعاب عليه أو يذم.

الحج:

الحج يُعوّد الإنسان على تحمل المشاق، وتحمل المشاق يؤكد نية التوبة والبراءة من الذنوب أكثر مما تؤكدها الدعوات والاستغفارات في الصيام والصلاة، واستسهال الصعاب في سبيل الوصول إلى غرض بذاته كان دائمًا الدليل على الإخلاص في القول والعمل، وعلى صدق النية في المقاصد والاتجاهات.

وفيه أيضًا يقع التساوي في الوقوف بين يدي الله بين الأفراد والطبقات المختلفة اختلافًا بينًا في كل مظاهر الحياة، لا فرق بين أبيضهم وأسودهم، وعالمهم وجاهلهم، وغنيهم وفقيرهم، وكبيرهم وصغيرهم.

الزكاة:

الزكاة تُعوّد الإنسان البذل، والسخاء، والتضحية، والعطف على الفقراء.

بهذا وغيره يتبين أن الإسلام لم يهمل أمراض القلوب من الطب العلاجي ولا من الطب الوقائي، وأعطاها أكبر قسط من العناية، وأوفر نصيب من الرعاية.

الإسلام وأمراض الأبدان:

يقول ابن القيم: إن قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، واستفراغ المواد الفاسدة، والحمية عن المؤذي. وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه الأصول الثلاثة في ثلاثة مواضع.

1- قال تعالى في آية الصوم:﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾. فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر طلبًا لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم في السفر لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذي يخلف ما تحلل فتخور القوة وتضعف، فأباح للمسافر الفطر حفظًا لصحته وقوته عما يضعفها.

2– قال تعالى في آية الحج:﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾. فأباح للمريض ومن به أذى من رأسه من قمل، أو حكة، أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغًا.

والأشياء التي يؤذي انحباسها ومدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا سبغ، والبول، والغائط والريح، والقيء، والعطاس، والنوم، والجوع، والعطش. وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء، وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن في الرأس على استفراغ ما هو أصعب منه، كما هي طريقة القرآن في التنبيه بالأدنى على الأعلى.

3– وأما الحمية، فقد قال تعالى في آية الوضوء:﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾. فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه. وهذا تنبيه على الحمية من كل مؤذٍ له من داخل أو خارج.

طب الأجسام

طب الأجسام نوعان: نوع فطر الله عليه الحيوان ناطقه وبهيميه فهذا لا يحتاج فيه إلى معالجة طبيب؛ كطب الجوع، والعطش، والبرد، والتعب بأضدادها وما يزيلها.

والنوع الثاني ما يحتاج إلى فكر وتأمل كدفع الأمراض المتشابهة، فإذا كان سبب المرض معه فالنظر في السبب ينبغي أن يقع أولاً، ثم في المرض ثانيًا، ثم في الدواء ثالثًا.

الطب البشري:

إن الطب البشري يقوم على أصلين: هما الوقاية، والعلاج.

وقد عنى الإسلام بهذين الأمرين، ووضع لهما من التعاليم والعبادات ما يكفل حصول الغرض المقصود منهما على أكمل وجه.

وفي سبيل تحقيق هذا الغرض مزج بين المنافع الروحية والمنافع الجسدية ليتأهل الآخذ به لسعادة روحه وبدنه. وقد ظهر أثر ذلك في حال المسلمين الأولين، ومن جرى على سنتهم؛ فكانوا أصفى الناس أرواحًا، وأقوى الأمم أجسادًا.

وهذه المزية في الإسلام لا توجد في أي دين من الأديان المعروفة لنا الآن، فإنها تفرض على معتنقيها مختلف الرياضيات الجسدية للحصول على سلطان الروح بإضعاف الجسد.

والآن وقد اعتبرت تقوية الأجسام من موجبات تقوية العقل حتى قالوا:

"العقل السليم في الجسم السليم". فسيجد الناس في الإسلام وتعاليمه أكبر منشط لهم في نزوعهم هذا، وفي هذا دليل جديد على أن الإسلام يساير الميول الإنسانية الحقة من كل وجه.

الوقاية من الأمراض الجسمية:

أرشدنا الإسلام إلى أن الحياة التي وهبها الله إلى الناس أمانة في أعناقهم، ووديعة بين أيديهم، وحثهم على حفظ هذه الأمانة وصيانة تلك الوديعة. قال تعالى:﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وقال تعالى:﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾، وقال عليه السلام: "إن لبدنك عليك حقًا"، وفي حديث آخر: "من أصبح آمنًا في سربه معافى في بدنه، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها".

هذه العناية والرعاية من المشرع الأعظم لحفظ الأجسام من كل ما يعرضها للتلف جعلته يرسم لنا طريق الوقاية من الأمراض التي تعتري الأجسام، فيما فرض من فرائض وما حث عليه من تعاليم. وقد بلغ من حرصه على صحة الأجسام أن جعل للوقاية من الأمراض تأثيرًا على ما فرض من عبادات؛ فأباح الفطر في رمضان، وعدم استعمال الماء في الطهارة إذا خاف الإنسان المرض أو زيادته، كما تجاوز في مثل هذه الحالة عن القيام والقعود في الصلاة، واكتفى بحركة الرأس، أو العين، أو القلب في أدائها رمزًا للعبادة والتقديس.

وقد فرض الله الصلاة وجعل لها مقدمات من وضوء، وطهارة بدن، وثوب، ومكان. وقد تحدثنا فيما سبق عن الوضوء من الناحية الروحية والآن نتحدث عنه كطهارة بدنية خصها الله بالأعضاء التي هي أكثر تعرضًا من غيرها للأوساخ والأتربة.

فعلى المسلم حين يريد الوضوء أن يغسل يديه قبل إدخالهما في الإناء لإزالة ما عساه يكون قد علق بهما من الأوساخ؛ إذ هما أكثر أعضاء الجسم مباشرة لكل ممسوك، أو ملموس، أو محمول. وغسل الفم مرات متعددة مع استعمال السواك من أهم أسباب الوقاية من مرض الأسنان واللثة. وغسل طاقة الأنف بالماء البارد من أهم أسباب الوقاية من الزكام، فوق أنه نظافة لطاقتي الأنف. وغسل الوجه، واليدين، والرجلين وهي الأجزاء المعرضة عادة للأمراض الجلدية والالتهابات أحسن وقاية لها من ذلك.

وقد اتضح أخيرًا أن أكثر الميكروبات وجراثيم الأمراض إنما تصيب الإنسان بطريق اختراقها الجلد، وأن طفيليات الديدان تدخل الجسم بطريق اختراق الجلد أيضًا.

ولما كانت الصلوات خمسًا، كان على المسلم أن يقوم بغسل هذه الأعضاء المعرضة للأوساخ والأتربة خمس مرات في كل يوم، فيتم له بذلك القيام بعمل صحي ينادي به العلم الحديث. ولا شك أن الغسل المتكرر فيه الوقاية الأولية الفعالة لأن الطبقة الخارجية للجلد تمنع الميكروبات من الوصول إلى داخل الجسم، إلا إذا حصل فيها تسلخ، وأهم أسباب التسلخ الهرش الذي أسبابه عدم النظافة.

أما نظافة البدن، والثوب، والمكان فقد أمر بها الإسلام، ورغّب فيها للصلاة وغير الصلاة. قال تعالى:﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾. وفي الحديث الشريف: "من نام وفي يده غَمْرٌ"– رائحة اللحم وزهومته– ولم يغسله فأصابه به شيء فلا يلومنّ إلا نفسه".

وفي حديث آخر: "إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الماء حتى يغسلها، فإنه لا يدري أين باتت يده". وفي حديث آخر: "إن الله نظيف فتنظفوا، فإنه لا يدخل الجنة إلا نظيف". وفي حديث آخر: "أصلحوا رحالكم ولباسكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة"؛ والشامة الخال على الخد، وإصلاح الرحال التي هي الدور والمساكن إنما يكون بالتهوية وفتح النوافذ لتجديد الهواء ودخول الشمس فتقتل الجراثيم والميكروبات وتجفف الرطوبات، وقد يكون إصلاحها أيضًا بالمواد المطهرة وكنسها ورشها وإزالة القمامة منها.

وأما الجنابة فقد فرض الإسلام على الرجال والنساء الاستحمام من الجنابة، كما حض النساء على وجوب الاستحمام من الحيض، وندب الاستحمام للجمع والأعياد، وشدد في وجوب طهارة الماء الذي يستعمل في الاستحمام والوضوء، وجعل هذا النظام في النظافة مقرونًا بعمل عبادي لتطهر الروح على أساس لا يمكن أن يتصور أكمل منه للوصول إلى درجة الطهر الحسي والمعنوي.

ولم يكتفِ الإسلام بما شرعه من استحمام ووضوء، بل سن سنة الاعتدال في كل شيء؛ ففي الحديث: "إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين". ورأى الرسول عليه السلام رجلاً طاعنًا في السن يمشي وهو يتهادى بين ولديه، فسأل عنه فقيل إنه نذر أن يحج ماشيًا على قدميه، فقال عليه السلام: "إن الله غني عن تعذيب هذا نفسه احملوه، فحملوه على بعير".

وقال لعبد الله بن عمر وقد بلغه أنه يقوم الليل ويصوم النهار: "إن لبدنك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا، ولزورك "زائرك" عليك حقًا، فنم، وقم، وصم، وأفطر". وفي الحديث "تنقّه وتوقّه"؛ أي تنظف وتطهر، واحذر ما يضرك. فجعل الإسلام من صفات المؤمن التعقل والفطنة، وكلها تدعو إلى حفظ الجسم ووقايته مما يضره، وعلى هذا الأساس شرع الإسلام الرخص في العبادات، فشرع قصر الصلاة للمسافر، وأباح للمريض الصلاة من جلوس، واضطجاع، وإيماء، كما رخص للمسافر والمريض الفطر في الصيام.

وقال في ذلك الرسول عليه السلام: "إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يجب أن تؤتى عزائمه". وحرم الإسلام التغذية بالدم، والميتة، ولحم الخنزير، والخمر كل هذا للمحافظة على جسم الإنسان ووقايته من الضعف حتى تكون عنده المناعة الكافية التي تقف أمام غزو الميكروبات وجراثيم الأمراض.

وأما الصلاة فهي رياضة بدنية تعود على الجسم بالقوة والنشاط، ففي الركوع والاعتدال والسجود والقيام ما يقوى العضلات وسائر أجزاء الجسم، وينظم الدورة الدموية، ويساعد على بناء الأنسجة والتخلص من الفضلات التي يضر بقاؤها بالجسم، وفي ذلك تربية للمناعة والحصانة ومقاومة غزو الميكروبات.

كما أن الصلاة تساعد على الهضم، ففي حديث الطبراني: "أذيبوا طعامكم بالذكر والصلاة، ولا تناموا عليه فتقسو قلوبكم". وفي هذا الحديث أيضًا إشارة إلى ضرر النوم بعد الأكل مباشرة، وهو ما ذهب إليه الأطباء وأرشد إليه علماء النفس وأساتذة الرياضة الآن بعد طول البحث والدراسة.

هذا "ولو أديت الصلاة كما يجب وكما أمر الله تعالى تامة الركوع، والسجود، والقيام لتبين لنا أن فيها من التمرينات الرياضية "السويدية" ما يعجز أي مدرب رياضي أن يجمع لك في وقت واحد قصير وفي دقائق معدودة ما فيها من حركات متناسقة مرتبة تعم جميع الأعضاء. فواجب المصلى أن يقف معتدلا لا يلتفت يمينًا ولا يسارًا، وإذا ركع وجب أن يثني الظهر بحيث يكون معتدلا كالخط الأفقي المستقيم، ك

كما يجب أن تكون الرأس أسفل من الظهر، كما يجب عدم ثني الركبتين، ثم عليه أن يقف ثانية ليهوى بجسمه كله على الأرض ساجدًا، ويضع جميع أطرافه على الأرض كذلك بثقل، ثم تتكرر هذه العملية وتلك الحركات بعدد الركعات وبعدد الصلوات في اليوم والليل، وفي النهاية عليه أن يؤدي تمرين العنق بالتسليم يمينًا، وأمامًا، ويسارًا".

ولا يفوتني أن أثبت هنا ما كتبه الكاتب الفرنسي "ناصر الدين دينيه" الذي أعلن إسلامه في الجزائر سنة **1927** في كتابه أشعة خاصة بنور الإسلام تحت عنوان بساطة الإسلام في الصلاة والنظافة، وقد ترجمه من الفرنسية الأستاذ راشد رستم. يقول: إن الحركات والإشارات في الصلاة الإسلامية ذات بساطة ولطف لم يسبق لهما مثيل في صلاة غيرها، كما أنها لا تدعوا الوجوه إلى التظاهر والتكلف، ولا العيون إلى الشخوص إلى السماء واستنزال الدموع، كما أنها خالية من مبالغات الورع وتكليفات الخضوع لأن الله سبحانه هو العليم بذات الصدور.

وحركات الصلاة الإسلامية – فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المسلمين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم– تقوم للجسم بأعظم مزايا الحركات الرياضية؛ فهي مفروضة الأداء خمس مرات في اليوم الواحد، وكم من شيخ كبير أو رجل بدين استطاع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء مما لا يستطيع غيرهم في مثل هذا السن، ما لم يكن تريض على ذلك من قبل. أضف إلى ذلك حكمة الوضوء الذي يسبق كل صلاة، ففيها إنعاش للبدن إلى جانب ما فيها من صحة ونظافة.

هذا وعادة الانتظام في مواعيد الصلاة تربي في النفس عادة انتظام المواعيد في كل شيء، في تناول الطعام، وفي الذهاب إلى المدرسة، أو الديوان، أو العمل، وفي أوقات النوم واليقظة، وفي أوقات الذهاب إلى السوق، والمذاكرة، واللعب، ومقابلة الناس وهكذا. ويترتب على هذا أن يتعلم الإنسان تقسيم العمل على حسب الأوقات، وبهذا يستطيع الإنسان أن يواجه متاعب الحياة ومشكلاتها. أ هـ.

شيء من الهدي النبوي الإسلامي في الوقاية من الأمراض

1- قال صلى الله عليه وسلم: "اتقوا اللاعنين قالوا: وما اللاعنين يا رسول الله، قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم".

فقوله صلى الله عليه وسلم اتقوا اللاعنين يريد الأمرين الجالبين للعين، وذلك أن من فعلهما لُعن وشتم، ومعنى التخلي "التبرز"؛ أي قضاء الحاجة، ولا شك أن قضاء الحاجة في طريق الناس أو في المواضع التي يلجأون إليها ليستظلوا بظلها أمر مستقبح مؤذٍ للناس، وربما أصابه القذر فتنتشر بذلك الأمراض ويتعرض الناس للعدوى.

2- وقال صلى الله عليه وسلم: "اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل". والملاعن مواضع اللعن؛ أي أن التبرز في هذه المواضع يكون سببًا في لعن من يفعله.

والمراد بالظل هنا الظل الذي يتخذه الناس مقيلاً ومنزلاً ينزلونه.

روى سيدنا جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى أن يبال في المال الراكد، وفي رواية أخرى عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يبال في الماء الجاري.

وحكمة النهى عن التبول في الماء سواء الراكد منه أو الجاري واضحة؛ وهي الوقاية من الأمراض التي تنتقل بواسطة تلوث المياه مثل البلهارسيا، والانكلستوما، وغيرهما.

4- عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من أحب أن يكثر الله خير بيته فليتوضأ إذا حضر غذاؤه وإذا رفع".

قال الحافظ المنذري المراد بالوضوء في هذا الحديث غسل اليدين قبل الأكل وبعده لإزالة ما عسى أن يكون قد علق بهما قبل الأكل، وحتى لا يدع شيئًا من بقايا الأكل في يديه بعد الأكل.

5- وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الماء حتى يغسلها، فإنه لا يدري أين باتت يده". والحكمة واضحة؛ إذ قد يكون أصاب يده شيء حال نومه يلوث الماء أو يترك فيه بعض الميكروبات.

6- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: "من نام وفي يده غمر ولم يغسله فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه". والغمر رائحة اللحم، وزهومته، وزنخه.

7- وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان حسّاس لحاس، فاحذروه على أنفسكم. من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه".

والمراد بالشيطان هنا ما يأتي متخفيًا من الحشرات والهوام المؤذية بنفسها، أو ينقلها للميكروبات كالثعبان، والبرص، والصرصار وغيرها، لأنها تحس برائحة الطعام فتأتي إليه وتلحس مواضعه، ومن هنا يتعرض من لم يغسل يديه وفمه بعد الأكل إلى ضررها وهو نائم، سواء أكان ذلك الضرر صادرا منها مباشرة، أو بواسطة ما تنقله من ميكروبات.

8- وقال صلى الله عليه وسلم: "من بات وفي يده ريح غمر فأصابه وضح فلا يلومن إلا نفسه". الوضح في الحديث "البَرَص". وقد ثبت أن من أسباب التعرض لمرض البرص - والعياذ بالله- القذارة ولاسيما عند النوم.

9- وقال صلى الله عليه وسلم: "غطوا الإناء وأوكئوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء لم يغط، ولا سقاء لم يوك إلا وقع فيه من ذلك الوباء".

تغطية الإناء معروفة، والوكاء رباط القربة ونحوها. وهذا الحديث يؤيده الطب الحديث المبني على أن للأوبئة ميكروبات لا ترى بالأبصار، إذا وقعت في ماء أو طعام كانت سببًا في إصابة كلٍ مَن أكل أو شرب منه، فإن لم يصبها وباء وقع فيها غيره من الهوام والحشرات التي تحمل الوباء.

10- وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يورد ممرض على مصح". وفي رواية أخرى عن البخاري وأحمد أنه قال: "فر من المجذوم فرارك من الأسد، ولا تديموا النظر للمجذومين، وإذا كلمتموهم فليكن بينكم وبينهم قدر رمح".

وروى مسلم أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم: "إنا قد بايعناك فارجع".

الإسلام والطب الرياضي

للرياضة البدنية أثر قوي في الوقاية من الأمراض لما تحدثه من المناعة في الجسم، لهذا رأينا أن نتحدث عن الرياضة البدنية في الإسلام. وإذا علمنا أن الصلاة بما اشتملت عليه من ركوع، وسجود، وقيام، وتسليم مشتملة على كثير من الحركات الرياضية. وكذلك أفعال الحج بما اشتملت عليه من مناسك متعددة عرفنا مقدار عناية الإسلام بالرياضة البدنية. وقد تنبه المسلمون لفوائد الرياضة البدنية باعتبارها من أهم العوامل التي تقوي عضلات الجسم وتنشط الدورة الدموية، وبالتالي تحدث عند الإنسان مناعة ضد كثير من الأمراض.

كما نظر إليها المسلمون على أنها عامل من عوامل تدريب المسلمين على القتال في سبيل الله، وقد حث عليها وعلى تعلمها الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم. كما كان هو عليه السلام القدوة الحسنة في ذلك، فقد ورد أنه كان يسابق زوجته السيدة عائشة رضي الله عنها جريًا على الأقدام، تقول السيدة عائشة: "سابقني رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبقته، ثم سابقني فسبقني فقال هذه بتلك".

ومعروف أن المشي والجري من أهم أنواع الرياضة، وقد قرر الطب أن المشي من أهم وسائل علاج مرض السكر، والروماتيزم، والإمساك المستعصي. والجري من أهم عوامل تنشيط الدورة الدموية.

كما شجع الإسلام على سباق الخيل والجمال، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسابق على ناقته "العضباء"، وورد أنه كان لا يسابق بها أحدًا إلا سبقه، فجاء أعرابي في يوم على بعير وقال: أتسابقني يا محمد؟ فسابقه النبي صلى الله عليه وسلم فسبقه الأعرابي، فكبر ذلك على الصحابة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنه حقًا على الله ألا يرفع شيئًا من الدنيا إلا وضعه".

كما رغّب الإسلام في السباحة، والعوم، والرمي، وطلب إلى الآباء تعليمها لأبنائهم. قال عليه السلام: "تعلموا السباحة وعلموها أبناءكم". وفي حديث آخر "حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة، والسباحة، والرمي".

ولم ينس الإسلام المصارعة، فقد رُوى أن النبي صلى الله عليه وسلم صارع رجلاً معروفًا بالشدة في الجاهلية، فصرعه الرسول عليه السلام، فقال الأعرابي عاودني في أخرى، فصرعه النبي في الثانية، فقال الأعرابي عاودني، فصرعه صلى الله عليه وسلم في الثالثة.

كما ورد المبارزة بالحراب – وهي تشبه الآن المبارزة بالشيش– ، فكان رسول الله صلى الله وسلم يسمح للأحباش بمزاولة اللعب بالحراب في مسجده الشريف وهو ينظر إليهم ويشجعهم، وكان الرسول عليه السلام يرمي من وراء ذلك إلى تدريب المسلمين وإعدادهم للجهاد. وهذا هو بعينه ما يقوم به قادتنا اليوم من تدريب الشبان على وسائل الجهاد بالتمرينات العسكرية والتي أصبحت جزءًا من المنهاج الدراسي في دور التعليم هذا.

ولم يهمل الإسلام اللهو البريء، فقد ورد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على أصحاب (الدركلة) – وهي لعبة للعجم فيها نوع من الرقص البريء– وهم يلعبون فقال لهم:

"جدوا يا بني أرقده حتى يعلم اليهود والنصارى أن في ديننا فسحة".

وفي هذا الحديث مسألتان يجب التنبيه عليهما:

الأولى– أن هذه اللعبة بالرغم من أنها دخيلة على الإسلام لم يمنعها الرسول عليه السلام.

الثانية– لم ينكر الرسول عليهم هذا النوع من الرقص، بل وصفه بأن فيه فسحة وتسلية. وجاء من بعد الرسول عليه السلام الخلفاء، والأمراء، والولاة فوجهوا اهتمامهم لكثير من أنواع الرياضة البدنية كعامل من عوامل تقوية الجسم.

فها هو ذا عمر بن الخطاب وهو خليفة المسلمين يقول في صدر رسالته إلى بعض الولاة: (أما بعد، فعلموا أولادكم السباحة، والرماية، والفروسية).

وهو الذي رأى رجلاً قويًا يتخشع في مشيته، زاعمًا أن هذا من سيماء الصالحين، فناداه قائلا: يا هذا ارفع رأسك، فإن الإسلام ليس بمريض.

ويقول الحجاج الثقفي لمعلم ولده: (علم ولدي السباحة قبل الكتابة، فإنه يجد من يكتب عنه ولا يجد من يسبح عنه).

وقال أبو عقيل: رأيت أبا هاشم الصوفي مقبلاً من جهة النهر فقلت له: في أي عمل كنت اليوم؟ فقال: في تعليم ما ليس يُنسى، وليس لشيء من الحيوانات عنه غني. قلت: وما هو؟ قال: السباحة.

أما اهتمام الإسلام بركوب الخيل وحث المسلمين على التدريب على هذا النوع من الرياضة، فإنا نجد ذلك في كتاب الله وفي كلام الرسول عليه السلام.

قال تعالى:﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾وقال تعالى يقسم بالخيل: (والعاديات ضبحًا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحًا فأثرن به نقعًا فوسطن به جمعًا) ويقول الرسول عليه السلام في مدح الخيل: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة)، ويقول: (الخيل ظهورها عز وبطونها كنز).

وقد صح أن الرسول عليه السلام سابق بين الخيل، وأعطى السابق جائزة. والإسلام يرمي من وراء ذلك كله إلى غرضين.

الأول– تقوية الجسم والروح.

الثاني– أن يكون أبناء الإسلام رجال حرب، وجهاد، وجِلاد، وأصحاب قوة ومنعة، وأن يكونوا على أهُبة الاستعداد لدفع العدو المهاجم، أو إخراج العدو المستعمر الغاصب.

وقد أدرك هذا المعنى السامي رجال ثورتنا المباركة، فعملوا على تعميم تعليمها في المدارس المختلفة، والجامعات، والهيئات، والجمعيات؛ فانتشرت التدريبات العسكرية والتمرينات الرياضية المختلفة حتى ينشأ بذلك جيل جديد مكافح مجاهد ينعم بقوة الجسم والروح، ويأخذ طريقه إلى المجد وسبيله إلى الخير.

الطب العلاجي

تطور فن العلاج

عرف الإنسان العلاج منذ أن عرف الألم، والألم يولد مع الإنسان وهو مشكلة من مشكلات الطبيعة، والعلاج أيًا كان هو حلها. وقد قال بعض الفلاسفة: "إن الطبيعة لا تخلق مشكلة إلا وهي قادرة على حلها".

وقد كان الإنسان البدائي يعزو ما يصيبه من أمراض إلى غضب الآلهة، أو إلى الأرواح الشريرة التي تمس الجسم، أو إلى النجوم والأفلاك وغير ذلك من العوامل. وكان لعجزه وقلة حيلته وتخبطه يعلل كل ما يراه ولا يدرك كنهه بما يصوره له خياله البدائي القاصر، ولكنه عن طريق المحاولة بدأ يعرف فوائد بعض النباتات والوصفات البدائية، وبوساطة المصادفات، وبفضل قوة الملاحظة أخذ يلاحظ المزايا غير العادية التي تتمتع بها الحيوانات والنباتات التي ترافقه في درب الحياة الطويل، واعتقد في حماسته البدائية أن هذه الكائنات الحية فيما تبرزه من قوة الاحتمال والقدرة على خوض الأعاصير كفيلة بأن تمده بأسباب البقاء وأسباب الشفاء من آلامه وأمراضه.

فمثلا كان الإنسان يعرف أن الأسد شجاع، فظن أن أكل قلب الأسد سيبعث الشجاعة في قلبه. والثعلب لديه قدرة عجيبة على العدو مسافات طويلة، فاعتقد أنه إذا أكل رئتي الثعلب سيطول نفسه، وإذا كان الدب قويًا فمن الممكن أن يمنحه القوة، وهكذا.

وتلك المعتقدات كانت تقوم على الجهل المطبق الذي أسلم الإنسان إلى تيه من الوساوس والخزعبلات، وسرعان ما احتكر هذه الوساوس طبيب القبيلة. وكان طبيب القبيلة هو ساحرها ومشعوذها، ومن أخطر الشخصيات شأنًا. وما أكثر ما زعم أن للأنهار، والأشجار، والصخور، والسحب وغير ذلك من الأشياء قدرات عجيبة على الشفاء. ومع ذلك كان الإنسان من حين إلى حين يعثر على طرف من أطراف الحقيقة وكان ذلك يكلفه آلافا من السنين. حتى بدأ يتثبت من أن للنباتات والمعادن مزايا حقيقية لشفاء الأمراض.

الإسلام والطب العلاجي للأجسام:

لما كان الإسلام يستهدف أولا وبالذات إصلاح نفوس البشر وعقائدهم وأخلاقهم وإخلاص عبادتهم لله وحده، لم يتوسع في تعرضه للأمراض ولا للدواء، واكتفى بالتوجيهات العامة وترك للإنسان حرية البحث والتنقيب ليطلع في طريق بحثه على أسرار خلق الله، ويهتك المستور من كنوز الطبيعة.

يقول ابن القيم في كتابه زاد المعاد: كان علاجه صلى الله عليه وسلم للمرض ثلاثة أنواع: أحدها بالأدوية الطبيعية، والثاني بالأدوية الإلهية، والثالث بالمركب من الأمرين؛ وهذا إنما يشير إليه الرسول صلى الله عليه وسلم إشارة، فإنه إنما بعث هاديًا وداعيًا إلى الله وإلى جنته، ومعرفًا بالله ومبينا للأمة مواقع رضاه ومواقع سخطه، وأمر المبدأ والمعاد وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها.

وأما طب الأبدان فجاء من تكميل شريعته ومقصودًا لغيره، فإذا قدر الاستغناء عنه كان صرف الهمم والقوى إلى علاج القلوب والأرواح، ودفع أسقامها. وحمايتها مما يفسدها هو المقصود الأول، وإصلاح البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع، وفساد البدن مع إصلاح القلب مضرته يسيرة جدًا وهي مضرة زائلة تعقبها المنفعة الدائمة.

فمن التوجيهات العامة التي جاء بها القرآن الكريم:﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾.

وقوله تعالى:﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ ﴾.

ومن التوجيهات النبوية قوله صلى الله عليه وسلم: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء". وقوله: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع". وقوله: "يا عباد الله تداووا، فإن الله لم يدع داء إلا وضع له شفاء"، وفي رواية أخرى: "إن الله لم ينزل داء إلا أنزل له دواء، علمه من علمه، وجهله من جهله إلا السام (الموت)". وقوله صلى الله عليه وسلم: "لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب، فإن ربهم يطعمهم ويسقيهم".

وقد رُوي أن طبيبًا نصرانيًا سأل الحسين بن علي الواقدي عن علم الأبدان، فقال له: العلم علمان: علم الأبدان وعلم الأديان؛ أما علم الأبدان فقد جمع كتابنا الطب كله في نصب آية:﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾. فقال له: وهل ذكر نبيكم شيئًا عن الطب؟ فقال له نعم، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء، وأعط كل بدن ما عودته". فقال له: والله ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس شيئًا.

الوصفات العلاجية:

ومع هذه التوجيهات النبوية العامة التي ذكرناها، فقد وردت بعض العلاجات الخاصة ببعض الأمراض على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإليكم بعضها.

- الحجامة والفَصْد والكي:

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "الشفاء في ثلاثة: شربة عسل، وشرطة محجم، وكية نار".

وقال: "احتجم وأعط الحجّام أجره". والحجامة هي شرط الجلد وإخراج الدم بالمحجم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم على الأخذ عين "عرقان في جانب العنق"، وبين الكتفين، وأعطي الحجام أجره، ولو كان حرامًا لم يعطه. وعن أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وحجمه أبو طيبة، فأمر له بصاعين من طعام، وكلم أهله فوضعوا عنه شيئًا من خراجه وقال: إن أفضل ما تداويتم به الحجامة.

قال شُراح الحديث: إن الحجامة على الأخذ عين تمنع من أمراض الرأس، والوجه، والأذنين، والعينين، والأسنان، والأنف. والحجامة على الكاهل تنفع في وجع السن، والوجه، والحلقوم، وتنقى الرأس. والحجامة على الساقين تنفع في بثور الفخذ، والنقرس، والبواسير، وداء الفيل، وحكة الظهر، والحجامة على ظهر القدم تنفع في قروح الفخذين، والساقين، والحكة العارضة.

ويقولون أيضًا: إن الخطاب في حديث الحجامة لأهل الحجاز ومن في حكمهم من أهل البلاد الحارة، وهم الذين تنفع فيهم الحجامة كعلاج لبعض الأمراض التي ذكرناها. أما أهل البلاد الباردة فالحجامة لا تفيد في مثل هذه الأمراض، وإن الأمر يختلف باختلاف الزمان والمكان والمزاج؛ ولهذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن الحجامة إذا بلغ الرجل الخمسين من عمره حيث قال: "إذا بلغ الرجل من أمتي الخمسين سنة فليكل الحجامة".

لا يقال: إن الفصد والحجامة ليس لهما مبررات في دستور الطب الحديث، فقد يكون الطب الحديث قد استغنى عنهما لوجود عوض يقوم مقامهما كتوسيع الشرايين ببعض الأدوية، وامتصاص الدم الزائد في حالات الضغط العالي بطريق "العلق" الذي يمتص الدم الزائد أو سحبه بالإبرة، أو باكتشاف أدوية أخرى تسكن الدم وتنظم سيره.

واهتداء العلماء اليوم في الطب الحديث إلى هذه الوسائل لا يعني أن الوسائل الأولى موضع الطع والزراية، فقد أدت هذه الوسائل مهمتها يوم كان العلم قاصرًا عليها. فإذا ما وجدت وسيلة أخرى أكفل للصحة وأنجح في العلاج فلا ضير من ترك الأولى والعمل بالثانية دون نكير من الدين. على أن الطب الحديث لم يمنع من ذلك فقد جاء في دائرة المعارف في الكلام عن الدم ما نصه: "ويمكن وقف تزايد الكريات الحمراء بفصد كميات من الدم من أوردة المريض". ثم يقول في علاج بعض الأمراض: والعلاج في هذه الحالة بفصد دم المريض فصدًا دوريًا حسب الأصول الطبية.

- علاج الحمى:

في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنما الحمى أو شدة الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء.

وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة مرفوعًا: الحمى من كير جهنم، فنحوها عنكم بالماء البارد. وفي المسند عن سمرة مرفوعا: الحمى قطعة من النار فأبردوها عنكم بالماء البارد. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حم دعا بقربة من ماء فأفرغها على رأسه فاغتسل.

ولعل بعض الأطباء المحدثين لا يستريح لمثل هذا العلاج ويراه منافيا لدواء الحمى وعلاجها، ونقول لمثل هؤلاء: إن خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم وإرشاداته نوعان: عام لأهل الأرض جميعا وهو أكثر إرشاداته، وخاص ببعضهم كهذا الحديث فهو خاص بأهل الحجاز، وأكثر الحميات التي تصيبهم من نوع الحمى اليومية العرضية التي تحدث من ضربة الشمس، وهذه ينفعها الماء البارد شربًا واغتسالاً.

يقول جالينوس في كتابه حيلة البرء في المقالة العاشرة: ولو أن رجلاً شابًا حسن اللحم، خصب البدن في وقت القيظ وفي وقت منتهى الحمى وليس في أحشائه ورم استحم بماء بارد أو سبح فيه لا تنفع بذلك، ثم يقول: ونحن نأمر بذلك بلا توقف.

ويقول الإمام الرازي في كتابه الطب الكبير: إذا كانت القوة قوية، والحمى حادة جدًا، والنضج بين ولا ورم في الجوف ولا فتق ينفع الماء البارد شربًا. وإن كان العليل خصب البدن والزمان حار، وكان معتادًا لاستعمال الماء الباردة من خارج فليؤذن فيه هذا.

وعن أبي هريرة قال: ذكرت الحمى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فسبها رجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسبها فإنها تنقي الذنوب كما تنقي النار خبث الحديد.

ويقول أبو هريرة: ما من مرض يصيبني أحب إلي من الحمى لأنها تدخل في كل عضو مني، وإن الله سبحانه يعطي كل عضو حظه من الأجر.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر الصوفي :

زارت مكفرة الذنوب لصبها أهلا بها من زائر ومودع

قالت وقد عزمت على ترحالها ماذا تريد؟ قلت: ألا تقلعي؟

- الطاعون وعلاجه والاحتراز منه:

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: غدة كغدة البعير يخرج في المراق والإبط.

وقال صاحب الصحاح: الطاعون نوع من الوباء فبينهما عموم وخصوص، فكل طاعون وباء، وليس كل وباء طاعونًا. وعند أهل الطب ورم رديء قتّال، يخرج معه تلهب شديد مؤلم جدًا يتجاوز المقدار في ذلك ويؤول أمره إلى التقرح سريعًا.

والطاعون يعبر به عن ثلاثة أمور:

1- الأثر الظاهر وهو الذي ذكره الأطباء.

2- الموت الحادث منه وهو المراد بالحديث الصحيح في قوله عليه السلام: الطاعون شهادة لكل مسلم.

3- السبب الفاعل لهذا الداء، وقد ورد في الحديث الصحيح أنه رجز أرسل على بني إسرائيل، وفي حديث آخر أنه دعوة نبي.

وهذا لا يتعارض مع ما ثبت من أن انتقال هذا المرض سببه المباشر العدوى بانتقال ميكروب هذا المرض من المريض إلى السليم.

علاجه:

لم يرد عن الرسول عليه السلام حديث صريح ولا عمل علاجي في شأن الطاعون، ولعل السبب هو عدم ظهور الطاعون في أرض الحجاز في زمنه، فقد ذكر المؤرخون أن مكة والمدينة لم يدخلهما طاعون، كما لم يرد عن الصحابة شيء فيما يختص بعلاج هذا المرض الفتاك:

نعم ذكر أطباء الإسلام شيئًا من العلاج فقالوا يجب على المطعون السكون والدعة، وأن يقلل من الغذاء، وأن يخرج من بدنه الرطوبة الفضيلة.

الإسلام والحجر الصحي:

الحجر الصحي هو المنع من دخول أرض الوباء، أو الخروج منها منعًا لانتشار العدوى من الأمراض المعدية السريعة الانتقال مثل الطاعون، والكوليرا، والتيفوس.

وهو أعظم نظام في الطب الوقائي، وأقوى وسيلة يلجأ إليها الطبيب للوقاية من الأمراض الوبائية؛ وذلك لحصر المرض في أضيق حدوده وحجزه في مولده الأول حتى لا يتنشر وتكثر الإصابة به.

والحجر الصحي بهذا المعنى ليس من مبتكرات الطب الحديث، فقد سبق إليه الإسلام وقرره قولاً وعملاً. ففي القرآن الكريم﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾، وأي تهلكة بعد تعرض الإنسان للأمراض المعدية.

وفي الحديث "إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم فيها فلا تخرجوا منها". وفي حديث آخر: "فر من المجذوم فرارك من الأسد". وفي حديث آخر: "لا يدخل مصح على مجرب". وروى: "كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين". وروى مسلم أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم قائلا له: "إنا قد بايعناك فارجع". وفي حديث آخر: "لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، وفر من المجذوم فرارك من الأسد". ومعنى لا عدوى أي مؤثرة بنفسها بدليل فر من المجذوم.

ورُوي أن عمر بن الخطاب خرج من المدينة قاصدًا الشام ليتفقد أحوال الرعية, فلما وصل إلى سرح في طريق الشام مما يلي الحجاز لقيه أبو عبيدة بن الجراح, وأخبره بأن الوباء بالشام؛ فقال عمر لابن عباس: ادع إليّ المهاجرين, فدعاهم فاستشارهم عمر فاختلفوا, وقال بعضهم: خرجت لأمر فلا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية من الناس وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم, ولا نرى أن تقدم بهم على هذا الوباء, فقال عمر: ارتفعوا عني, ثم قال لابن عباس: ادع لي الأنصار, فلما حضروا استشارهم فاختلفوا وقالوا مثل ما قال المهاجرون, فقال: ارتفعوا عني، ثم قال لابن عباس: ادع لي من كان هنا من مشايخ قريش, فلما حضروا لم يختلف عليه رجلان وقالوا: نرى أن ترجع ولا تقدم على هذا الوباء. فنادى عمر إني مصبح على ظهر – أي مسافر في الصباح على ظهر راحلتي– ، فقال أبو عبيدة: أترجع فرارًا من قضاء الله وقدره يا أمير المؤمنين، فقال له عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله. فجاء عبد الرحمن بن عوف – وكان متغيبًا في حاجة– فلما علم بما حصل قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا سمعتم بالطاعون بأرضٍ فلا تدخلوها". الحديث فحمد الله عمر رضي الله عنه الله.

الحجر الصحي والتوكل:

يخطئ بعض الناس فيظنون أن الحذر والأخذ بالحيطة في مثل هذا المقام مناف للتوكل على الله، ويروون في مقابل ما ذكرناه من الأحاديث مثل: "لا يغني حذر عن قدر"، ومثل: "لا عدوى ولا طيرة"، ومثل: "ما كان لك سوف يأتيك".

والحقيقة أن التوكل على الله لا ينافي أخذ الحذر من كل ما يضر. قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم"، وأمر بحفظ النفس فقال: "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة".

وهو الذي أباح التيمم بدل الوضوء إذا لم يمكن استعمال الماء لمرض، وهو الذي أباح الفطر لمن كان مريضًا، بل أوجبه عليه إذا كان الصوم يؤخر شفاءه أو يجلب له مرضًا.

وهو الذي أباح لمن كان برأسه أذى أن يحلق رأسه عند التحلل من الإحرام في الحج أو العمرة، وجعل عليه بدل ذلك فدية من صيام، أو صدقة، أو نسك.

ومعنى هذا أن الحذر من أمر الله وأن القدر من أمر الله.

وفي حديث عمر السابق: "نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله" ما يؤيد ذلك.

وقد ضرب عمر للسائل مثلاً: بما إذا كان له إبل بعضها جربي وبعضها صحيحة، أفكان يخلط بينهما أم كان ينزل هذه في مرعى وتلك في مرعى، ويكون نزول كل منهما في مرعاه سببًا في أن تَسلَم الصحيحة فلا تصاب، وعدم إصابتها حينئذ هو من قدر الله، كما أنهما لو نزلتا معًا فاصيبتا لكان ذلك من قدر الله أيضًا.

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم في حديث (لا عدوى)؛ أي مؤثرة بنفسها؛ أي أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يؤثر بسببها لا هي. فقد ثبت أن بعض الأجسام مستعدة لقبول العدوى، وبعضها غير مستعد لذلك وكما ثبت أن مجرد وجود الميكروب لا يتحتم معه حدوث العدوى، فقد تكون هناك حصانة طبيعية أو عوامل للتحصين كالتطعيم وغيره، وتلك الموانع والعوامل هي أيضًا من أمر الله. فعلى المؤمن الصادق الإيمان أن يجمع بين التوكل على الله والأخذ في الأسباب نزولاً على مبدأ "أعقلها وتوكل".

وقد ورد في السنة النبوية تطبيق كثير على هذا المبدأ، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: "أغلق بابك واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله، وخَمّر إناءك واذكر اسم الله".

وقد حصر علماء المسلمين الحِكم التي تضمنها هذا الحجر فقالوا:

1- تجنُّب الأسباب المؤذية والبعد عنها.

2- الأخذ بالعافية التي هي أساس المعاش والمعاد.

3- أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عفن وفسد فيمرضون.

4- عدم مجاورة المرضى الذين قد مرضوا بذلك فيمرضون مثلهم ويصيبهم ما أصابهم.

5- حماية النفوس من الطيرة والعدوى.

6- في النهى عن الخروج الأمر بالتسليم والتفويض، فضلاً عن عدم نشر المرض وحصره في أضيق مكان.

الجروح وعلاجها:

ورد في الصحيحين عن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد يسأل عما دوى به جرح رسول الله صلى الله عليه يوم أُحُد، فقال: جرح وجهه، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه. وكانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليها بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الدم لا يزيد إلا كثرة أخذت قطعة حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رمادًا ألصقته بالجرح، فاستمسك الدم برماد الحصير المصنوع من البردي. وقالوا إن لرماد البردي فعل قوى في حبس الدم لأن فيه تجفيفًا قويًا وقلة لذع. وقال صاحب القانون: البردي ينفع من النزف ويمنعه، ويذر على الجراحات الطرية فيدملها.

عِرق النَّسا:

عرّفه ابن القيم بأنه عرق ممتد من مفصل الورك وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب فيما بين عظم الساق والوتر. وإذا أصابه مرض أحدث ألمًا يبتدئ من مفصل الورك وينزل من خلف على الفخذ، وربما امتد إلى الكعب، وكلما طالت مدته زاد نزوله ويهز معه الرجل والفخذ. وسُمي هذا العرق "بالنَّسا" لأن ألمه يُنسي ما سواه.

علاجه: روى ابن ماجه في سننه من حديث محمد بن سرين عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: دواء (عرق النسا) شاة أعرابية تذاب، ثم تجزأ ثلاثة أجزاء، ثم تشرب على الريق في كل يوم جزء.

ولا يخفى أن الحديث خطاب للعرب، وأهل الحجاز، ومن جاورهم من أهل البداوي، وكان هذا العلاج من أنفع العلاجات عندهم لهذا المرض.

الصداع وعلاجه:

الصداع ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله، وله أسباب متعددة أوصلها ابن القيم إلى عشرين سببًا.

علاجه: روى ابن ماجه في سننه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا صدع غلف رأسه بالحناء ويقول: إنه نافع بإذن الله من الصداع.

يقول الأطباء: إن هذا العلاج نافع لبعض حالات الصداع، فلعل ما كان عند الرسول عليه السلام كان من هذا النوع الذي يفيد فيه علاج الحناء.

ذات الجنب وعلاجها:

ذات الجنب عند الأطباء نوعان:

1- ورم يعرض في نواحي الجنب في الغشاء المستبطن للأضلاع.

2- ألم يعرض في نواحي الجنب سببه رياح غليظة مؤذية تحتقن بين الصفاقات فتحدث ألمًا.

علاجه: روى الترمذي في جامعه عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تداووا من ذات الجنب بالقسط البحري والزيت.

الإمساك وعلاجه:

روى الترمذي وابن ماجه عن أسماء بنت عميس قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم بماذا كنت تستمشين؟ قالت: قلت بالشبرم. قال: حار ثم قال: استمشين بالسنا. ولو كان شيء يشفي من الموت لكان السنا.

وفي حديث آخر: عليكم بالتلبينة؛ فإنها تجم الفؤاد العريض وتذهب ببعض الحزن.

العذرة وعلاجها:

عرّفها ابن القيم بأنها قرحة تخرج فيما بين الأذن والحلق، وتعرض للصبيان غالبًا. وقيل تهيج في الحلق من الدم.

علاجها: في مسند أبي داود عن جابر بن عبد الله قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عائشة، وعندها صبي تسيل منخراه دمًا فقال: ما هذا؟ فقالوا: به العذرة، أو وجع في رأسه. فقال: ويلكن لا تقتلن أولادكن، أيما امرأة أصاب ولدها عذرة أو وجع في رأسه فلتأخذ قسطًا هنديا فلتحكه بماء ثم تسعطه إياه، فأمرت عائشة رضي الله عنها فصنع ذلك بالصبي فبرأ.

علاج البثرة:

البثرة خراج صغير "دمل" يتكون من مادة تسترق مكانًا من الجسد لتخرج منه. رُوي عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد خرج في أصبعي بثرة، فقال: عندك ذربرة. قلت: نعم. قال: ضعيها عليها وقولي: اللهم مصغر الكبير ومكبر الصغير صغر ما بي. وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: طَيّب رسول الله صلى الله عليه وسلم بثرة بيده بذريرة في حجة الوداع.

علاج الباسور:

كان من علاجه صلى الله عليه وسلم للباسور أنه كان ينصح باستعمال زيت الزيتون أكلاً ودهانًا. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة وإنه ينفع من الباسور.

علاج لدغ العقرب:

ورد أنه صلى الله عليه وسلم كان يعالج لدغ العقرب بالماء والملح.

ففي حديث البيهقي عن علي قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فوضع يده على الأرض لدغته عقرب، فتناولها صل الله عليه وسلم بنعله فقتلها، فلما انصرف قال لعن الله العقرب، ما تدع مصليًا ولا غيره، ولا نبيًا ولا غيره. ثم دعا بماء وملح فجعله في إناء، ثم جعل يصبه على أصبعه حيث لدغته ويمسحها ويعوذها بالمعوذتين.

علاج بعض أمراض العيون:

ورد في بعض الأحاديث النبوية وصف لعلاج بعض أمراض العيود كالرمد، وظلمة البصر. ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: السكماة من المن وماؤها شفاء للعين. وقال صلى الله عليه وسلم: خير كحلكم الإثمد يجلو البصر وينبت الشعر. يقول بن القيم: الإثمد ينفع العين ويقويها، ويشد أعصابها ويحفظ صحتها، ويذهب اللحم الزائد في القروح ويدملها، وينقي أوساخها ويجلوها، ويذهب الصداع؛ وهو أجود أكحال العين. ورُوي أن ابن مسعود قال لامرأته وقد اشتكت من عينها: لو فعلت كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم كان خيرًا لك وأجدر أن تشفي، تنضحين في عينك الماء ثم تقولين: أذهب البأس رب الناس، أشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا. يقول شراح الحديث: إن ذلك العلاج خاص ببعض البلاد وبعض أمراض العين، فلا يجعل كلام النبوة الجزئي الخاص كليًا عامًا.

أوصاف علاجية عامة:

قال صلى الله عليه وسلم: إن هذه الحبة السوداء شفاء من كل داء إلا السام.

وقال صلى الله عليه وسلم: عليكم بهذا العود الهندي، فإن فيه سبعة أشفيه.

وقال صلى الله عليه وسلم: عليكم بألبان البقر، فإنها ترم من كل الشجر.

وقال صلى الله عليه وسلم: كلوا الثوم نيئًا، فلولا أن الملك يأتيني لأكلته.

وقال صلى الله عليه وسلم: أن التلبينة تجم الفؤاد للمريض، وتذهب ببعض الحزن.

وكان صلى الله عليه وسلم يأكل الرطب بالقثاء وبالبطيخ ويقول: يدفع حر هذا برد هذا، وبرد هذا حر هذا.

وفي هذا دفع لضرر بعض الأغذية بما يصلحها ويقويها ويدفع ضررها.

الجراحة:

ورد أنه صلى الله عليه وسلم استعمل في تداويه "المشقص"؛ وهو آلة من آلات الجراحة تستعمل لربط الشريان عند النزيف، وقد استعمله الرسول عليه الصلاة والسلام في علاج سعد بن معاذ.

التلبينة "حساء الشعير":

كان عليه الصلاة والسلام يصف للكثير من المرضى حساء من الشعير يقال له "التليبينة". فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: التَّلْبِينَةُ مُجِمَّةٌ لِفُؤَادِ الْمَرِيض، تَذْهَبُ بِبَعْضِ الْحُزْنِ. وفي رواية أخرى عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اشتكى أحد من أهله لم تزل البرمة على النار حتى ينتهي أحد طرفيه؛ يعني البرء، أو الموت.

وفي راوية عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قيل له أن فلانًا وجع ولا يطعم الطعام قال: عليكم بالتلبينة، والذي نفسي بيده إنها تغسل بطن أحدكم كما تغسل إحداكن وجهها من الوسخ. ونحن نعرف أن الكثيرين من الأطباء يصفون لبعض المرضي شرب ماء الشعير. والفرق بينه وبين حساء الشعير المعروف بالتلبينة أنها تطبخ من الشعير مطحونًا، وهو أنفع منه غير مطحون، وإذا شرب حارًا كان نفوذه أقوى وأسرع.

منع التداوي بالمُحرّم:

روى أبو داود من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء فتداووا ولا تتداووا بالمحرم. وعن ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم. وعن أبي هريرة قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدواء الخبيث. وفي صحيح مسلم أن طارق بن سويد الجعفي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء فقال: إنه ليس بدواء، ولكنه داء. وروى أبو داود والترمذي أنه صلى الله عليه وسلم سئل عن الخمر (يجعل في الدواء) فقال: إنها داء.

وفي صحيح مسلم عن طارق بن سويد الخثرمي قال: قلت: يا رسول الله إن بأرضنا أعنابًا نعتصرها فنشرب منها، قال: لا. فراجعته فقلت إنما نستشفي للمريض. قال: إن ذلك ليس بشفاء ولكنه داء. وفي النسائي أن طبيبًا ذكر ضفدعًا في دواء عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه عن قتلها.

وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من تداوي بالخمر فلا شفاه الله. ولعل سائلاً يسأل إذا تعينت الخمر دواء فلا معنى للمنع. والجواب أن الله حرم ما حرم لخبثه، فلو تصادف وزال المرض الظاهري فإنه سيعقبه سقم ومرض أشد وأعظم من المرض الأول، فكان المتداوي به قد سعى في إزالة مرض وجلب مرض أو أمراض أخرى. وأيضًا فإن الخمر داء، فكيف يتعين كونه دواء؟

الاستعانة بالطبيب الحاذق:

من هو الطبيب الحاذق: يقول ابن القيم هو الذي يتوفر فيه معرفة ما يأتي:

النظر في نوع المرض، سببه، قوة المريض، سنه، عادته، بلد المريض وتربته، النظر في الدواء المضاد للعلة الموازنة بين قوة الدواء والمريض، ألا يترتب على إزالة المرض حدوث غيره، أن يكون قادرًا على علاج الداء، أن يعالج بالدواء الأسهل فالأسهل، التلطف بالمريض، أن يعمل على حفظ الصحة الموجودة وردّ الصحة المفقودة.

هذا الطبيب الحاذق الذي تتوفر فيه هذه الأوصاف هو الذي يأمر الرسول عليه السلام بالاستعانة به. فقد روى الإمام مالك في موطئه عن زيد بن أسلم أن رجلاً في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرح فاحتقن الدم، وأن الرجل دعا طبيبين من بني أنمار، فنظرًا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل لهما أيكما أطب؟ فقال: أو في الطب خير يا رسول الله. فقال: أنزل الدواء الذي أنزل الداء. ففي هذا الحديث الإرشاد إلى الاستعانة بالأعلم فالأعلم، لأنه أقرب إصابة ممن هو دونه.

الطبيب الضامن:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من تطبب ولم يعلم من الطب قبل ذلك فهو ضامن". ففي هذا الحديث إرشاد إلى أن من يزاول الطب يجب أن يكون عليمًا به وبأصوله، أما أدعياء الطب الذين يُعرّضون الناس للضرر، فعليهم تقع مسئولية عملهم فهم ضامنون.

رُوي أن وفد نجران الذي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فيه الشمردل، فقال لرسول الله: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إني كنت الكاهن والطبيب لقومي في الجاهلية، فما يحل لي؟

قال عليه الصلاة والسلام فصد العرق ومجسة الطعنة أن اضطررت، وعليك بالسنا ولا تداو أحدًا حتى تعرف داره. قال الشمردل: والذي بعثك بالحق لأنت أعلم بالطب مني.

العلاج النفساني.

من السُّنة التي رغب فيها الرسول صلى الله عليه وسلم عيادة المرضى، فقد كان صلى الله عليه وسلم إذا سمع بمرض أحد أصحابه أسرع لعيادته، وكان يسأل المريض عن شكواه، وكيف يجد نفسه؟، ويضع يده على جبهته ويدعو له ويصف له ما ينفعه في علته، وربما توضأ وصب على المريض من وضوئه، ثم يقول للمريض: لا بأس عليك طهور إن شاء الله.

روى ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا دخلتم على المريض فنفسوا له في الأجل، فإن ذلك لا يرد شيئًا، وهو تطبيب لنفس المريض. وفي هذا الحديث إرشاد إلى ما يطيب نفس المريض من الكلام الذي تقوى به طبيعة المريض فتساعده على تخفيف علته؛ إذ إن إدخال الطمأنينة على نفس المريض من أهم أسباب الشفاء.

ومما يتصل بالعلاج النفساني أن يشغل المهموم نفسه بغير سبب همه، وأن يبتعد عن المكان الذي يذكره بسبب همه، ففي الحديث الشريف: "ما على أحدكم إذا ألح به الهم إلا أن يتقلد قوسه".

الطب القرآني

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو من أي ناحية أتيته تجد فيه إعجازًا يبهرك. يقرأه البليغ فيجد فيه الإعجاز البلاغي، ويقرأه العالم الاجتماعي فيجد فيه ذخيرة علم الاجتماع، ويقرأه الرجل الديني فيجد فيه أصول التشريع الصحيح، ويقرأه الفيلسوف فيقف أمام قوة بيانه صاغرًا ذليلاً، ويقرأه الأديب فيجد فيه ما يروي ظمأه، ويقرأه الطبيب فيخر ساجدًا أمام إعجازه. وهكذا كان القرآن ولا يزال المعجزة الخالدة "قل لئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا".

وإن كل من كتب في تفسير القرآن إنما كتب شيئًا من معاني القرآن، ولم يستطع مفسر أن يدعي أنه استوعب معاني القرآن، بل كان كل واحد منهم يختم نهاية اجتهاده بكلمة "والله أعلم بمراده". ولما كانت الأمة العربية في أعلى درجات الفصاحة فقد آمنت به، وبما أمكنها فهمه من آياته وما لم يمكنها فهمه ردته إلى المجاز، أو آمنت به إجمالاً ولو لم تفهم تفاصيله لوثوقها أن كل ما جاء في القرآن الكريم هو من عند الله تعالى.

أما من خلفوا الأمة العربية بعد ذلك فقد قلت فصاحتهم في الوقت الذي زاد فيه إدراكهم لكثير من أسرار الكون، فأصبحوا يصدقون علمهم ولا يصدقون ما لا ينطبق عليه.

وقد كشف العلم الحديث عن معنى بعض الآيات القرآنية، وسينكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم، وسيأتي قريبًا الوقت الذي يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين وإلى الإيمان بالله.

وقد ورد في القرآن الكريم آيات اشتملت على كثير من الحقائق الطبية التي خفيت على المسلمين الأولين وكشفها الطب الحديث، فمرحبًا بالطب وبكل علم من العلوم الكونية يشترك معنا في كشف ما عمى علينا من آيات الله التي يزخر بها القرآن الكريم، والتي يشير إليها في هذه العبارة الموجزة: "سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق".

وستذكر بعض الآيات القرآنية الطبية التي اهتدينا إليها والتي تعرّض لها بعض الأطباء، والكتّاب، والمفسرين. ثم نحاول أن نتعرض لها بالإيضاح والتفصيل فنقول وبالله التوفيق.

1- عسل النحل:

1- قال تعالى:﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة النحل 67- 69.

وما أصدق هذه الآية الكريمة التي اشتملت على كثير من النواحي الطبية التي اكتشفها الطب الحديث، والتي تعتبر من معجزات القرآن الكريم.

فعسل النحل أقدم طعام حلو عرفه الإنسان، ثم هو مورد خصب للمواد الغذائية النافعة للجسم، كما أنه يحتوي على حمض يعالج الكثير من أمراض الجهاز الهضمي، كما أن له قدرة بالغة على قتل كثير من الميكروبات التي تسبب بعض الأمراض.

وهذا هو السر الذي جعل عسل النحل يتصف بهذا الوصف الكريم: ﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ﴾.

وقد أثبت العلم الحديث أن عسل النحل يحتوي على نسبة كبيرة من السكر؛ وهو الوقود الذي يحتاجه الجسم لمسابقة نشاطه الحيوي، وتبلغ نسبة السكر فيه نحو 75%.

كما يحتوي على نسبة كبيرة من فيتامين (ب) ومركباته، ومن المعروف عن هذا الفيتامين أنه يساعد على النمو. ويستطيع الإنسان بواسطته أن يقاوم الأنيميا، والأمراض الجلدية، والعصبية، والبلاجرا، كما يساعد على هضم المواد النشوية.

كما يحتوي على قدر من فيتامين (جـ) الذي يقاوم أمراض الدم والأسقربوط، ويمنع العدوى من بعض الأمراض، كما أنه ضد النزيف والتسمم.

كما يحتوي على المركبات البروتينية التي لها أهمية في بناء خلايا الجسم وتعويض ما يتلف من أنسجته، كما أن له مفعول السحر في شفاء السعال والتهاب الحلق.

كما أنه يحتوي على كمية ملحوظة من أحماض الفواكه التي لها قيمة غذائية كبيرة".

ويقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل: إن السر في اتصاف عسل النحل بأن "فيه شفاء للناس" يرجع إلى أمور.

2- تركيب عسل النحل:

فهو يتركب من 25- 40% جلوكوز، وأن الجلوكوز سلاح الطبيب في أغلب الأمراض ويُعطى بصفته مقويًا وضد التسمم الناشئ من أمراض أعضاء في الجسم مثل: التسمم البولي، والاضطرابات المعدية المعوية، وضد التسمم في الحميات مثل التيفويد، والالتهاب الرئوي، والحصبة، وفي حالات ضعف القلب والذبحة الصدرية إلى آخر الأمراض التي يدخل في علاجها الجلوكوز.

وقد يقال: إن كل أنواع الغذاء لها فوائد، والحقيقة أن أنواع الغذاء الأخرى لا تستعمل كعلاج إلا فيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقص في الغذاء.

وإذا عرفنا ذلك علمنا أن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة، ولكنه تنزيل ممن خلق الإنسان والنحل، وعلم علاقة كل منهما بالآخر.

2- إنها تأكل من كل الزهور والنباتات "ثم كلي من كل الثمرات". واختلاف الثمرات التي يأكل منها النحل له دخل كبير في أثر الشتاء، وفي هذا أيضًا إيحاء بتركيب الأدوية من العناصر المختلفة حتى يكون مفعولها قويًا.

ما أثبته العلم الحديث من أن عسل النحل يعتبر من الملينات القوية المفعول، وفي نفس الوقت مطهر للأمعاء والمعدة، ويحتوي على طاقة حرارية لا يستهان بها، كما أنه يعاون على تنشيط الكبد. وقد تنبه قدماء المصريين إلى ما لعسل النحل من فوائد، فعالجوا به مرضاهم ومزجوه بطعامهم، وكانوا يطلقون عليه اسم "شراب الآلهة"، وكانوا يعتمدون عليه اعتمادًا يكاد يكون تامًا في الحصول على حاجة أجسامهم من المواد السكرية وفي علاج الكثير من الأمراض، كما كانوا يستخدمونه في تركيب مواد التحنيط.

كما أن بعض المؤسسات الألمانية الخاصة بالتجميل تنبهت إلى ما لعسل النحل من بعض الخصائص التي لا توجد في غيره فأدخلته في تركيب بعض مستحضرات التجميل الخاصة بدهان البشرة لما له من أثر واضح على الجلد والشعر.

هذا والناظر في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام حين جاءه رجل يشكو إليه انطلاق بطن أخيه فقال له الرسول عليه السلام: أسقه عسلاً، فسقاه فلم يبرأ، فرجع إليه فقال له الرسول: أسقه عسلا. وتكرر ذلك من الرجل ومن الرسول عليه السلام ثلاث مرات، وفي الرابعة قال له: أسقه عسلاً صدق الله وكذب بطن أخيك، فسقاه فبرئ.

يُرى فيه أمورًا:

1- أنه يثبت بجلاء قوة مفعول عسل النحل كعلاج.

2- أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية خاصة بحسب قوة المرض وضعفه، فاعتبار قوة المرض والمريض ومقادير الأدوية وكيفياتها من أكبر قواعد الطب.

3- أن الدواء لا يحدث أثره المطلوب إلا بعد أن يتكرر، وقد لا يتحقق البرء من أول جرعة.

وفي هذا يقول ابن القيم:

"وفي تكرار سقيه العسل معنى طبي بديع؛ وهو أن الدواء يجب أن يكون له مقدار وكمية بحسب حال الداء إن قصر عنه لم يزله بالكلية، وإن جاوزه أوهن القوى فأحدث ضررًا آخر. فلما أمره الرسول أن يسقيه العسل سقاه مقدارًا لا يفي بمقاومة الداء ولا يبلغ الغرض، فلما تكررت الشربات بحسب مادة الداء برئ بإذن الله".

وأختم كلمتي بما جاء في كتاب زاد المعاد لابن القيم في شأن النحل؛ إذ يقول:

هو غذاء مع الأغذية، ودواء مع الأدوية، وشراب مع الأشربة، وحلو مع الحلو، وطلاء مع الأطلية، ومفرح مع المفرحات. فما خُلق لنا شيء في معناه أفضل منه، ولا مثله، ولا قريبًا منه، ولم يكن معوّل القدماء إلا عليه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشربه بالماء على الريق ويقول عليه السلام: عليكم بالشفائين العسل والقرآن، فجمع بين الطب البشري والإلهي، وبين طب الأبدان وطب الأرواح، وبين الدواء الأرضي والدواء السماوي.

ثم يقول: والعسل فيه منافع كثيرة وعظيمة، فإنه جلاء للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها، ومحلل للرطوبات أكلاً وطلاء، نافع لأصحاب البلغم، مغذي ملين للطبيعة، منق للكبد والصدر، مدر للبول، موافق للسعال، وإن شرب ممزوجًا بماء نفع من عضة الكلب، ويحفظ جثة الموتى ويسمى الحافظ الأمين، وإذا لطخ به البدن أزال ما به من هوام، وإن اكتحل به جلا ظلمة البصر، وإن استاك به بيض الأسنان وصقلها وحفظ صحتها وصحة اللثة، ويفتح أفواه العروق، ويدر الطمث. وهو مع هذا كله مأمون الغائلة قليل المضار.

كل هذا يثبت لنا بطريق لا يقبل الشك إعجاز القرآن الكريم، وأنه قرر منذ أربعة عشر قرنًا حقائق اعترف بها الطب الحديث والقديم.

2- الأجنة:

تعتبر آيات الأجنة في القرآن الكريم من أهم الأدلة التي تثبت معجزة القرآن العلمية؛ إذ إن العلم لم يصل إلى الحقائق التي أوردها القرآن الكريم في هذا النوع من العلم إلا بعد أن اكتشفت المجاهر، واستخدمت الأشعة، وتقدمت وسائل التشريح. ولم يتم ذلك إلا في أوائل القرن الحالي، فوصل العلم إلى ما جاءت به آيات القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا وأفرد لها ميدانًا خاصًا به أطلق عليه علم الأجنة. والكلام في هذا يتعلق بثلاثة مواضع: الأول: أطوار الجنين، الثاني: ترتيب خلق الحواس في الجنين، الثالث: موضع الخصيتين في الجنين.

الآيات التي وردت في أطوار الجنين:

قال تعالى.﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ سورة العلق 1- 2.

ويقول:﴿ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴾سورة نوح 14.

ويقول:﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثلاث ذلكم اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ ﴾الزمر 6.

ويقول:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾المؤمنون 12- 14.

وقد قرر الطب الحديث أن الجنين بعد التلقيح في أول تكوينه يكون مستطيلاً مثل العلقة تمامًا، ويستمر كذلك في الأسابيع الأربعة الأولى تقريبًا. وأن طوله لا يزيد على خمس السنتيمتر الواحد، وأنه لا يميز بالعين المجردة، ثم يصير بعد ذلك مستديرًا بغير انتظام ومكورًا، ويبقى كذلك بضعة أسابيع. وقد سماه الخالق في هذه الحالة مضغة لكثرة الشبة بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة، وبعد ذلك تظهر العظام، ثم اللحم "العضلات" الذي يكسو العظام، ثم يأخذ الجنين في النمو شيئًا فشيئًا، ثم تحل فيه الروح.

مكان الجنين: قال تعالى:﴿ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ﴾.

وهو كالبيان لما جاء في الآية السابقة من قوله:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾. يقرر القرآن في هاتين الآيتين أن الجنين محفوظ في قرار مكين داخل ظلمات ثلاث، وهذه الظلمات الثلاث هي التي يعبر عنها الطب الحديث بالأغشية الثلاثة الصماء التي لا ينفذ منها الماء ولا الضوء ولا الحرارة وهي:

1- المتباري

2- الخريوتي

3- اللفائفي

وهذه الأغشية الثلاثة التي تظهر للعين المجردة كأنها غشاء واحد، ولكن التشريح أثبت أنها ثلاثة. ولما لم يظهر ذلك للفقهاء قالوا: إن الظلمات الثلاث هي البطن، والفرج، والمشيمة.

كل هذه التطورات الجنينية منذ ساعة الإخصاب إلى تخلق العظام والعضلات هو ما تشير إليه الآيات السابقة.

2- الموضوع الثاني:

ترتيب خلق الحواس في الجنين منذ ولادته إلى أن يصبح طفلاً ثم يكتمل، وها هي ذي الآيات التي وردت في هذا:

1- قال تعالى:﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

2- ويقول:﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾.

3- ويقول:﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

4- ويقول:﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا ﴾.

وهكذا في كل الآيات الكريمة التي وردت فيها الحواس نجد السمع أولًا، ثم البصر ثانيًا، ثم الفؤاد ثالثًا. أمصادفة هذا، أم أن هذه الآيات تقرر بذلك حقيقة علمية لم يصل إليها العلم إلا أخيرًا في الوقت الذي جاء بها القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا من الزمان؟

يقول الأستاذ عبدالرزاق نوفل:

لقد أثبت العلم الحديث بالتجارب العلمية، والأبحاث الطبية: أن الجنين يولد وتبدأ حواسه في العمل بعد ذلك، وأول الحواس التي يستعملها الطفل هي حاسة السمع؛ إذ إنها تبدأ مبكرة فيستطيع الطفل سماع الأصوات بعد بضعة أيام من ولادته، وتزيد قدرته على تمييز الأصوات، ويمكن فهمها عن طريق حاسة السمع في الأشهر القليلة الأولى، بينما باقي حواسه تكون معطلة تمامًا.

أما حاسة الإبصار فإن الجنين يولد بدون هذه الحاسة، ولا يمكن الرؤية إلا بعد ولادته بمدة؛ فشبكة العين لا يكتمل نموها إلا بعد فترة تتراوح بين ثلاثة أشهر وستة أشهر، ولا تتم الحركة كاملة في أجهزة العين إلا بعد تسعة أشهر؛ حيث يمكن تجميع الألوان الأساسية وكذلك الأشكال. أما الإدراك والقدرة على الفهم وهو المقصود بالفؤاد، فإنه يبدأ بعد سنوات عديدة من الولادة وتأخذ في النحو باستمرار.

3- الموضوع الثالث:

يقرر القرآن حقيقة أخرى من حقائق علم الأجنة في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا... ﴾.

يقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل:

قد اشتملت هذه الآية الكريمة على عدة معانٍ، والذي يعنينا منها ما يتعلق بموضوعنا من الناحية الطبية؛ فالآية تنص على أن الله أخذ ذرية بني آدم من ظهورهم، والمعروف طبيًا أن الخصيتين موضوعتان في الجزء الأسفل لا في الظهر، ولكن الله سبحانه وتعالى إنما يتكلم عن خلق الإنسان وذريته ونشأته؛ وهو المعروف الآن بعلم الأجنة، ويتكلم عن الجزء الذي يخصص للنطفة في الجسم من الجنين. وقد قرر الطب الحديث أن هذا الجزء في الظهر عند أسفل الكليتين تمامًا، تنمو منه الأعضاء التي تكون الخصيتين، وتبقى في الظهر تحت الكليتين حتى الأشهر الأخيرة من حياة الجنين في بطن أمه، ثم تنحدر إلى أسفل، وعند الولادة تكون في مركزها الطبيعي المعتاد.

فالآية الكريمة تشير والحالة هذه إلى النقطة الأصلية في جسم الجنين التي تؤخذ منها النقطة، وهذه هي الظهر بلا شك. هذا ما قرره علم الأجنة، ولما كان علم الأجنة لم يتقدم إلا في المائة سنة الأخيرة، فإن هذه الآيات تعد في حكم المعجزات الطبية، وتثبت أن القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه تنزيل من حكيم حميد.

3- الخمر: قال تعالى:﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾.

لقد كانت الخمر من الأمور التي اختلف الناس فيها قديمًا وحديثًا، فمن قائل إنها تفيد في بعض الأحيان، ومن قائل إن القليل منها يفيد وإن الكثير منها يضر، ومن قائل إنها ضارة كثيرها وقليلها إلى أن وضعت موضع الدراسة العلمية والفحص التجريبي على نطاق واسع ولمدد طويلة أتضح بعدها أن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث بتقرير ضررها، وأن الإسلام إنما نهى عن شربها لا كأمر يتعبد به ويفتدى به كما كان يظن، بل كان ذلك تحقيقًا لصالح الإنسانية وحماية النوع الإنساني من شرها.

فقد ثبت طبيا أن الخمر أساسها مادة الكحول، وهذه المادة وإن كانت مطهرة للجسم من الظاهر، إلا أنها إن دخلت المعدة سببت فيها الالتهابات الحادة والقرح المعوية التي قد تؤدى في نهاية الطريق إلى السرطان، كما أنها تحدث التهابًا في الأعصاب وفي الكلى، وتصلبًا في الشرايين، وتحجرًا في الكبد. ولما كان الكبد هو بمثابة المعمل الكيمائي في الجسم فإن ما ينتج من تحجر فيه أو تليف لهو خطوط عميقة الأثر وثغرات في صحة الإنسان.

وقد ثبت طبيًا أيضًا أن المقادير الخفيفة وإن كانت لا تؤثر على العقل، فإنها تحدث ضعفًا في قوة الإرادة، وتزيد من الانفعالات النفسية وهذا هو محل الخطر؛ ولهذا حرم الإسلام القليل من الخمر والكثير منه، ووضع القاعدة العامة التي تقول: (ما أسكر كثيره فقليله حرام).

4- البلح دواء للحوامل ومرضي ضغط الدم:

قال تعالى في قصة مريم أم عيسى عليهما السلام: ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا* فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ﴾.

ويقول:﴿ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا ﴾.

نقرأ هذه الآيات من قصة مريم، ونمر عليها من غير أن نربط بين الحالة التي هي عليها وهي في أيامها الأخيرة من حملها بسيدنا عيسى عليه السلام وبين أمرها بأكل الرطب الذي يتساقط من النخلة. حتى جاء العلم الحديث وفسر لنا هذا السر وما فيه من إعجاز قرآني جاء على لسان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يوجد العلم الحديث بأربعة عشر قرنًا من الزمان. فقد أثبت التحليل العلمي للبلح أنه يحوي مادة تخفض ضغط الدم عند الحوامل، وتؤثر تأثيرًا كبيرًا في مساعدة الحوامل على سهولة الولادة.

فقد قدم الدكتور عبد العزيز شرف بحثًا عن البلح وتأثيره على الحامل أثبت فيه أن البلح يقوي انقباضات عضلات الرحم وخصوصًا في الشهور الأخيرة من الحمل.

وقد استرشد في بحثه هذا بالآية القرآنية الكريمة من سورة مريم: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ... ﴾.

والبلح له تأثيره الخاص على حركة الأمعاء، وبما أن الأطباء يعطون الحامل دائمًا مليِّنًا أو مسهلا قبل الولادة لتنشيط حركة الرحم ولإخلاء الأمعاء مما بها من بقايا الغذاء التي قد تضر أثناء الولادة، فقد وجد من البحث أن البلح يمكن أن يحل محل هذه الملينات؛ إذ تبين أن خلاصة البلح تزيد من حركة الأمعاء، وبالتالي تزيد من انقباضات الرحم. كما أثبت أن البلح له تأثير أيضًا على ضغط الدم عند الحامل؛ فهو يخفضه إلى درجات مختلفة تتناسب مع الكمية المعطاة منه، وهذا الانخفاض يكون دقيقًا ولمدة قصيرة يرجع بعدها إلى حالته الطبيعية؛ إذ إن ارتفاع ضغط الدم عند الحامل أثناء الولادة له خطورته، فقد يسبب هذا الارتفاع الألم والصداع والقلق وغيرها من الأمراض، وخصوصًا أثناء دور الطلق الذي يسبق الولادة والذي تنقبض فيه العضلات ويعصر الجسم عصرًا مما يسبب ارتفاعًا في الضغط.

لذلك كان تناول البلح في الشهور الأخيرة من الحمل له فائدة كبيرة جدًا في انخفاض ضغط الدم عند الحامل وتسهيل الولادة. ويقول الدكتور شرف: إنه إذا نقع البلح في اللبن وأضيف إليه القرنفل، فإن تأثيره يكون أقوى وفائدته أعظم.

وتتجه البحوث الآن إلى دراسة عصير البلح الذي يقدر بنحو 20% من وزنه لاستخلاص المادة التي تحدث انقباض الرحم وتساعد في الولادة. وكذلك عزل المادة التي تخفض ضغط الدم لتجربة كل منهما على حدة، ومعرفة تأثيرهما والجرعات اللازمة لاستخدام كل منهما. ثم يقول الدكتور شرف في بحثه: إن البلح يعادل اللحم في قيمته الغذائية، ويتفوق عليه بما يعطيه من سعرات حرارية، ومواد معدنية وسكرية؛ وذلك بالإضافة إلى أنه غني بالكالسيوم، والفسفور، والحديد، ويحتوي على غالبية الفيتامينات المعروفة. كما أنه يفيد في وقاية الجسم وعلاجه من أمراض العيون وضعف البصر، والأمراض الجلدية، والأنيميا، ولين العظام، والبواسير.

5- إرضاع الأم ولدها:

قال تعالى: "والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة". قال المفسرون إن الآية خبرية اللفظ إلا أنها إنشائية في المعنى؛ فهي تدل على الأمر، والمعنى ليرضعن أولادهن. وإني أسوق الحديث هنا إلى الأمهات الجاهلات، أو المنعمات اللاتي يُخيل إليهن أن التخلي عن الرضاع إبقاء على صحتهن وجمالهن. فقد أثبت الطب الحديث أن إرضاع الأم ولدها فيه كسب كبير وإبقاء على صحة الأم والوليد، وهو ما يرشدنا إليه القرآن الكريم ويؤيده العلم الحديث.

وإني استرشد في هذا الموضوع ببحث للدكتور محمد وصفي إذ يقول:

في هذه الآية الكريمة تنبيه إلى الواجب الأدبي والإنساني الذي يجب أن تلتزمه الوالدة في إرضاع ولدها، وأن إرضاع الأم ولدها هي القاعدة التي يجب اتباعها بنص الآية الكريمة، أما الإرضاع بواسطة مرضعة مأجورة أو غير مأجورة فلا يكون إلا في حالات استثنائية معينة؛ كانقطاع لبن الأم، أو تشقق الحلمة وهو ما تشير إليه الآية الكريمة وتعنيه إذ تقول:

﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلادَكُمْ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

وإرضاع الأم ولدها يرجع بالخير على الأم والولد معًا.

1- الفائدة التي تعود على الأم من إرضاع ولدها.

إن الإرضاع هو المتمم الطبيعي للحمل والوضع، فإن إعداد الغدد الثديية للمولود المقبل تبدأ في الشهر الأول من الحمل، وعلامة ذلك تضخم الغدد والتكاثر السريع للبشرة المخاطية للقنى اللبنية، وإنتاج عديد من الثغور الإفرازية الجديدة. وفي النصف الثاني من مدة الحمل يمكن أن يلاحظ وجود سائل مفروز من حلمه الثدي، أما إفراز اللبن الحقيقي فلا يبدأ إلا في اليوم الثاني أو الثالث حتى ولو ولد الطفل ميتًا.

ويلاحظ أن كمية اللبن للمرضع يزداد باضطراد في مصلحة الرضيع. وتمر الوالدة بعد وضع مولودها بفترة هامة من حياتها الجنسية تعرف بفترة النفاس؛ وهي الفترة التي تقع بين الولادة ورجوع الرحم إلى شكله الطبيعي.

فبعد الوضع تبدأ عملية إرجاع الرحم إلى حالتها الطبيعية، وإن إرضاع الطفل ومص ثدي أمه يعد من الضروريات اللازمة لحض الرحم على الدخول في انقباضات قوية تحدث كلما ضمت الأم الطفل إلى صدرها، وهذه الانقباضات الرحمية التي تحرضها الرضاعة توقف في الوقت نفسه أي ميل للنزف من الجيوب الوريدية. كما أن الرضاعة تسبب انقطاع الحيض خلال مدة الرضاعة، وهذا مما يساعد على إراحة الأعضاء التناسلية، ومنع احتقان الرحم وسهولة انكماشه.

2- الفائدة التي تعود على الطفل.

لا شك أن الطفل يستفيد من رضاعته من والدته أجل فائدة، فمنذ ولادته تفرز له الأم من ثدييها في اليومين الأولين بعد الولادة ما هو أمس الحاجة إليه من مادة تحمل خاصة الثليين وتفيد الرضيع على وجه عام كما تفيد جهازه الهضمي. ولبن الأم يلائم حياة الطفل ملاءمة تامة، فيزيد مقداره في الحجم وفي تنوع محتوياته حسب حاجاته. كما أنه تتوافر فيه المواد التي يستحيل أن تتوافر في لبن آخر سواه من أي صنف من الحيوانات الثديية، ولا يمكن أن تقوم هذه الألبان مقام لبن الأم على الوجه الأكمل.

فلبن الأم يحتوي على خميرة خاصة تحيل النشا إلى سكر، وهذه المادة لا توجد في غيره من الألبان. ويحتوي كذلك على خميرة أخرى تساعد على حدوث التبادل الغذائي، وهي لا توجد في غير لبن المرأة، هذا إلى جانب خمائر أخرى عديدة توجد في لبن المرأة وإن وجد بعضها في لبن الأم فلا توجد كلها مجتمعة إلا في لبن بنات حواء.

وهكذا نرى ديننا لم يأمر الوالدة بإرضاع ولدها إلا حفظًا لسلامتها وسلامة ابنها من العلل والأمراض، ولم يصرح باستئجار مرضع إلا في حالات معينة تدعو إليها الضرورة:﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

6- تحريم بعض أنواع المأكولات لتحقق ضررها:

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ* إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ... ﴾البقرة 73.

فهذه الآية الكريمة تنص على حرمة أنواع من المأكولات لحِكم عرفها الطب الحديث.

الأول: الميتة:

فالحيوان الميت لا يموت إلا لسبب مثل المرض، أو الشيخوخة. وقد قرر الأطباء أن الوفاة إن كانت بسبب المرض فمما لا شك فيه أن لحم الميتة يكون غير صالح للأكل نتيجة التسمم من مواد غير طبيعية وضارة للإنسان، حتى بعد أن يعقم من الجراثيم بطريق النار فالجسم الميت في هذه الحالة يشبه الغذاء المتخمر الذي مهما طهر من الجراثيم بالحرارة لا يزال مضرًا بالأجسام، وربما أدى الأكل منه إلى الوفاة.

وإن كانت الوفاة بسبب الشيخوخة فضررها كضرر الميتة بالمرض، لأن الشيخوخة معناها انحلال بعض الأنسجة فتؤدي إلى انحلال الكل، وانحلال بعض الأنسجة لا يأتي إلا لضعف طبيعي فيها، أو لمرض تدريجي يحدث تغيرات في لحم الحيوان تقلل من قيمتها الغذائية كما تقلل من قابليتها للهضم.

ولا يقال: أن الميتة تؤكل في البلاد الباردة، وكذلك لحوم بعض الحيوانات تؤكل من غير ذبح وبدون ضرر ظاهر لأن ضرر التخمر وأن قل في البلاد الباردة لكنه كثير في البلاد الحارة والدين الإسلامي أنزل للعالم كله بما فيه الأقاليم الحارة التي يحدث التخمر والتسمم فيها بسرعة مدهشة.

الثاني: الدم

وهو نسيج أغلبه وأهم عنصر فيه الكرات الحمراء، وهي خلايا حية، وفيه من إفرازات الجسم ما هو معد للإفراز بواسطة البول، والعرق، وغيرهما.

فالدم في الحقيقة كما يقرره الطب مزيج من مواد أغلبها مضر بالجسم ويجب أن تفرز، وإذا كان الحيوان المأخوذ منه الدم مريضًا كان شرب الدم أشد ضررًا، كما أن بقاؤه في جسم الحيوان وأنسجته قبل أكله مضر جدًا لما فيه من مواد مضرة تحدث تخمرًا بسرعة في أنسجة الحيوان مثل العضلات، فيكون لحمه غير صالح للأكل.

ومن المعروف عند الأطباء أن الدم أسرع وسائل العدوى للأمراض، وأنه إذا استعصى بعض الأمراض على الأطباء فإنهم يلجأون إلى تحليل الدم للكشف بواسطته عن الأمراض.

الثالث: لحم الخنزير.

حرم الدين الإسلامي لحم الخنزير لأسباب كثيرة، وإن لم يذكرها الدين ولم يعرفها القدماء إلا أن العلم الحديث أثبت بعضها، وأثبتت التجربة والمشاهدة بعضها الآخر، وأهمها:

1- ثبت طبيًا أن كثيرًا من الخنازير يصاب بمرض يقال له: "تركيتا"، وهو من نوع من الديدان خطر لأنه إذا أصيب به الإنسان يحدث به تسممًا عموميًا وإسهالًا مثل "الكوليرا"، وقد يؤدي إلى وفاة. كما ثبت أن لحم الخنزير المصاب بهذا المرض لا يمكن تطهيره من هذا المرض بسهولة، لأن الحيوان المصاب به يعتبر في حالة تسمم عمومي. ولم يشاهد الطب هذا المرض بين المسلمين الذين يحرمون أكل الخنزير، بينما هو كثير الانتشار بين الأمم التي تبيح أكله كأوروبا وأمريكا.

2- ثبت طبيًا أيضًا أنها تصاب بكثرة بما يسمى الدودة الوحيدة، أو حويصلات الديدان الشريطية. وقد ثبت علميًا أن هذه الحويصلات لا يمكن معرفتها في الحيوان الحي، فإذا أصابت أجسام بعض الحيوانات إصابة شاملة كان من العسير معالجتها وإبادتها بطريقة فعالة.

3- الخنزير في الأصل من الحيوانات المفترسة، ومن المعروف أن نابي الخنزير يقطعان وهو صغير وإلا كان خطرًا على كل من يقترب منه بعد نموّه واكتمال قوته.

كما أن من الشائع جدًا أن أنثى الخنزير كثيرًا ما تصاب بجنون النفاس بعد الولادة فتأكل مواليدها إن لم يبعدوها عنها.

وكثيرًا ما تهاجم من يتعرض لها في فترات النفاس بشراسة، وقد حرم الدين الإسلامي أكل لحم حيوان مفترس، بل حرم لحوم الحيوانات آكلة اللحوم عامة وإن لم تكن مفترسة.

4- الخنزير بطبعه من الحيوانات الوالغة كالضباع، فهو يلغ في الأرض، وقد يأكل الميتة والقذارة ويستطعمها.

5- من الملاحظ كثيرًا أن من يتناولون لحم الخنزير بكثرة يكون عندهم نوع من التبلد، وينعدم لديهم قدر كبير من النخوة؛ لهذا فكثير من عقلاء المسيحيين يرفضون أكل لحم الخنزير.

من أجل هذا كله ومن أجل ما خفي علينا حتى الآن حرم الدين الإسلامي أكل لحم الخنزير. ومن هنا نعرف حكمة الدين الإسلامي في اجتناب الضرر الذي لا يمكن الوقاية منه إلا بطرق ليست سهلة التناول، وأن أحسن وقاية عملية هي الامتناع عن أكله.

7- اعتزال النساء في المحيض:

قال تعالى:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾البقرة 222. وقد أوضحت هذه الآية الكريمة أمرين:

الأول: عرف منها الإنسان قبل أن يعرف شيئًا عن أنواع الإفرازات الجسيمة أن المحيض أذى، وأنه لا يفيد الجسم، وأن خروجه ضروري.

الثاني: قرر الأطباء أن اقتراب الرجل من المرأة في هذه الحالة مضر بالرجل والمرأة معًا؛ أما من ناحية الرجل فلحصول الضرر الصحي في الغالب والكثير. وأما من ناحية المرأة فإن الأعضاء التناسلية عندها تكون في حالة احتقان، والأعصاب تكون في حالة اضطراب، بسبب إفرازات الغدد التناسلية.

8- عدة المرأة المطلقة.

قال تعالى:﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾البقرة 228.

تدل هذه الآية على: أن براءة الرحم تكون بثلاثة قروء، ومدتها: ثلاثة أشهر؛ وهي عدة المرأة التي لا تحيض. وقال تعالى:﴿ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي فعدتهن ثلاثة أشهر، وميعاد الثلاثة أشهر هو ميعاد موضوع بحكمة فائقة؛ فقد قرر الطب أنه قبل الثلاثة الأشهر يصعب جدًا التثبت من الحمل، حتى بواسطة الأطباء الإخصائيين، وبعد هذا التاريخ تكون أعراض الحمل قد ظهرت؛ وذلك بعدم نزول الحيض، وكذلك الاضطرابات المعدية، وما إلى ذلك من العلامات التي يعرفها الأطباء.

وهذا سر من أسرار القرآن الكريم، ومعجزة طبية يعترف بها الطب الحديث. وهكذا يخدم العلم القرآن ويشرح أسراره، وكلما تقدم العلم كلما ظهر إعجاز القرآن الكريم ووضحت آياته؛ حتى يتبين للناس أنه الحق، وأنه تنزيل من حكيم عليم.

9- إثبات أن كل كائن حي يحتاج إلى النوم.

قال تعالى:﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ البقرة 255.

هذا أبلغ وصف في الاختلاف بين الذات الإلهية وبين الإنسان، فبعد أن وصف القرآن الكريم الإله بأنه حي، وصفه بأن صفة الحياة فيه تختلف اختلافًا كليًا عن حياة سائر الحيوانات؛ لأن كل كائن حي يحتاج إلى النوم، والإله لا ينام أبدًا. فكأن الآية تقول: إنه حي باق لا يموت ولا ينام؛ لأنه لو جاز عليه النوم لجاز عليه الموت، لأنه لا حياة بدون نوم. وقد اتجهت الأبحاث العلمية الطبية أخيرًا إلى: أن النوم ناشئ من تغييرات كيميائية تحدث من الحركة في الأنسجة، فإذا استمرت هذه التغييرات ومنع النوم بالقوة أدى ذلك إلى الموت حتمًا. أما إذا تركت وشأنها فإنها تؤدي إلى النوم، الذي يعيد التغيرات الكيميائية إلى ما كانت عليه قبل الحركة. ومن هنا تظهر لنا حكمة الله تعالى في هذا التعبير الدقيق، الذي يدل على أن القرآن الكريم لا تنتهي أسراره وعجائبه، وأنه معجزة الأزمان والدهور.

10- بيان أن موضع الإحساس والألم الطبقة الجلدية.

قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآَيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ النساء 56.

قرر الطب وأيدته التجربة والمشاهدة: أن موضع الإحساس والألم إنما هو في الطبقة الجلدية، فإذا ما تعدينا الطبقة الجلدية إلى الأنسجة، والعضلات، والأعضاء الداخلية كان إحساسها ضعيفًا، بل قد يكون معدومًا. وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة في شأن تعذيب الكافرين وهو: أنهم إذا ذهب إحساسهم بالألم بسبب احتراق الطبقة الجلدية بدلهم الله غيرها حتى يستشعروا ألم العذاب. فهل جاء إلينا الطب بشيء جديد بعد هذا الإعجاز القرآني؟

11- الصوم وأثره في شفاء كثير من الأمراض.

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾البقرة 183. ختمت آية الصوم هذه بقوله تعالى:﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾.

ومن التقوى: الوقاية من تحكم الشهوات المحرمة والشهوات المضرة بالصحة، وكذلك الإفراط في تناول الطعام والشراب، حتى تستريح المعدة، وتقوى على أداء عملها على أكمل وجه.

فقد تبين للمشتغلين بعلاج الأمراض – منذ وجد علم الطب– أن للأغذية دخلاً عظيمًا في إصابة الأجسام والأدواء المختلفة، لا من ناحية الإفراط فيها فحسب، ولكن من ناحية التسمم بالعناصر الداخلة في تركيبها أيضًا. كما تقرر علميًا: أن الأجساد البشرية إذا لم يراع في تغذيتها الاعتدال وتخير ما يناسبها من المواد الغذائية فسدت أعضاؤها، وتصلبت شرايينها، وتعدت هذه المواطن إلى الصفات الأدبية، فيتولد عنها ضيق الخلق، والضجر، والحمق واليأس الذي قد يسوق إلى الانتحار.

كما قرر الأطباء: أن الإنسان متى وصل إلى هذه الحالة أو بعضها كان أحوج ما يكون إلى الإمساك عن الطعام أيامًا متوالية، بل أسابيع، لطرد هذه المواد الدخيلة على الجسم.

وقد أدرك هذا المعنى علماء الطب قديمًا، منها– هو ذا أبو قراط يقول: "أكل الناس أكل السباع فمرضوا، فغذيناهم بغذاء الطيور فصحوا".

ويقول سقراط: "من العيب أن يصل الإنسان إلى سن الشيخوخة وضعفها في سن مبكرة؛ وذلك نتيجة جهله لما يكون عليه جسمه من صحة وكمال. إن الصحة والكمال لا يأتيان للجسم من تلقاء نفسيهما؛ فإن من لا يعتني بجسمه ويحافظ عليه لن يملك من الصحة والكمال شيئًا".

وها هو ذا – سيدنا الخلق وسيد الأطباء "محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم"– حينما أهدى إليه المقوقس جارية، وعسلاً، وطبيبا؛ فإنه قبل الجارية والعسل ورد الطبيب، وقال: لا حاجة لنا به نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع. فرجع الطبيب إلى المقوقس وقاله له: أرسلتني إلى رجل جمع الطب في كلمتين.

ويقول طبيب العرب (الحارث بن كلدة): "الداء الدوي إدخال الطعام على الطعام، فهو الذي يفني البرية، ويهلك السباع في البرية. وإياك والتخمة، فهي إن بقيت في الجوف قتلت، وإن تحللت أسقمت. وإياك ودخول الحمام شبعان، والنوم بالليل عريان، والقعود على الطعام غضبان، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك، وعليك بالحمية والاقتصاد في كل شيء، فإن الأكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها، ويسد مسامها.

وسئل حكيم عن علاج نافع للمعدة فقال: "أن تجلس على الطعام وأنت تشتهيه، وتقوم عنه وأنت تشتهيه. وقالوا: "إن الإنسان لا يحتاج لكي يعيش إلا لربع ما يأكله عادة، أما الثلاثة الأرباع الباقية فإنه بأكلها يجعل الأطباء يعيشون". ويحدثنا الرواة: أن حكيمًا من حكماء العرب آمن عندما سمع قوله تعالى:﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾. وقال: لقد جمعت هذه الآية الطب والحكمة معًا. من كل هذا نعلم أن القرآن الكريم قد سبق الطب الحديث في تفهم معنى الصوم وحقيقته، والآثار التي تترتب عليه.

الطب النبوي

قدمنا طرفًا من الطب القرآني، وها نحن أولاء نقدم طرفًا من الطب النبوي، الذي جاء على لسان خاتم النبيين، الذي خاطبه ربه بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

1- **الحمية:**

قال صلى الله عليه وسلم: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء".

وقال: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع، وإذا أكلنا لا نشبع".

وقال: "إن الله إذا أحب عبدًا حماه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه عن الطعام والشراب".

وقال: إياكم والبطنة؛ فإنها مفسدة للدين، مورثة للسقم، مكسلة عن العبادة".

وقال: "إن المعدة حوض البدن، والعروق إليها واردة، فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة، وإذا سقمت المعدة صدرت العروق بالسقم".

وقال: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه".

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: "تجشأ رجل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له الرسول عليه السلام: كف عنا جشاءك؛ فإن أكثرهم شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا يوم القيامة".

هذه جملة من الأحاديث الشريفة التي وردت على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم في الحمية، منذ أربعة عشر قرنًا، والطب لا يزال طفلًا رضيعًا، ثم شب الطب وترعرع وشاخ ولم يزدها إلا إثباتًا وتحقيقًا؛ لأن المعدة عضو رئيسي للهضم، والهضم قوام الحياة للإنسان، وفي صحتها صحته وسعادته، وفي اعتلالها شقاوته وبليته.

ولو كان تأثيرها مقصورًا على اعتلال الصحة وضعف البنية لها كانت مصيبتها فيها، ولكن في اعتلالها اعتلال العقل أيضًا؛ فمن ضعفت معدته وعثر هضمه ساءت طباعه، وضاق خلقه، وضعف تفكيره وإنتاجه، وأصبح لا يرى من الدنيا إلا مصائبها ومتاعبها، وإن أربعة أخماس مصائب الناس منشؤها انحراف عمل المعدة.

فمن أين لمحمد بن عبد الله هذه الحقيقة، وهو الأميّ الذي نشأ في صحراء مكة، ولم يجلس أمام معلم، ولم يدرس في جامعة علمية؟!

والجواب:

تولاه الله؛ إذ يقول: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾.

2- اللبن غذاء كامل:

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سقاه الله تعالى لبنًا فليقل اللهم بارك لنا فيه وزودنا منه فإنه ليس شيء يجزي عن الطعام والشراب غير اللبن". وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "عليكم بألبان البقر فإنها ترم "تأكل من كل الشجر".

حديثان نطق بهما محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وجاء الطب الحديث بأبحاثه وتقاريره عن اللبن وعناصره المختلفة التي يتركب منها بما لا يخرج عن أن يكون شرحًا وتفسيرًا لما تضمنه هذان الحديثان.

فقد قال الطب الحديث إن اللبن غذاء كامل يحتوي على كل العناصر التي يحتاج إليها الجسم، فهو فضلًا عن أنه يمد الجسم بالغذاء، يمده أيضًا بما يحتاج إليه من الماء؛ سواء في ذلك الصغار والكبار. ولقد فطنت الأمم المتحضرة إلى ما للبن من أهمية بالغة، فعمدت إلى إنشاء مراكز لإرشاد الأمهات والمرضى إلى ما للبن من منافع وفوائد لهما على وجه الخصوص.

وكأنه بالحديث الشريف يقول لهؤلاء وهؤلاء لقد سبقتكم في إعلان هذه الحقائق منذ أربعة عشر قرنًا. وصدق الله إذ يقول:﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾.

نعم هو سائغ للشاربين؛ لأنه يتكون من مواد بسيطة ومواد مركبة على حالة تُوافِق وتناسب كل من يتناوله. وجميع الألبان الناتجة من الإنسان، ومن أنواع الحيوانات المختلفة تحتوي على مركبات متماثلة في التركيب؛ هي الدهن، والمواد البروتينية، والأملاح، والماء. وتختلف فقط في نسبتها المئوية حتى تلائم أفراد جنسها. وهو الغذاء الوحيد الذي يتناوله الإنسان من اليوم الأول لولادته، ويستسيغه حتى اليوم الأخير من حياته. هذا وقد نشر معهد الأبحاث الطبية البريطانية أن اللبن يعد علاجًا إسعافيًا سريعًا للحروق البسيطة.

4- **الكلاب تحمل جراثيم الأمراض.**

ازداد شغف الناس في هذا العصر بتربية الكلاب، ومداعبتها، وتقبيلها، والسماح لها بلمس أيدي الصغار والكبار، ولعق فضلات الطعام من الأواني المعدة لحفظ المأكولات.

وهذه العادة لا تتفق مع التربية الدينية، ولا مع التهذيب الخلقي والنفسي، ولا مع القواعد الصحية والنظافة. فقد قرر الطب الحديث أن الكلب يحمل إحدى الطفليات التي تسمى "دودة الكلب الشريطية" ولا يزيد طولها عن نصف سنتيمتر، ويحتوي العضو الخلقي منها على 500 بويضة دقيقة جدًا. وهي تمتاز بمقاومتها الشديدة، فتتحمل الجفاف التام، وتعيش في الماء. وقد لُوحظ أن حياتها لا تقل عن 116 يومًا في درجة حرارة بين واحد فوق الصفر وواحد تحت الصفر دون أن يدب إليها الفساد، أو تبطل قوتها، أو مفعولها.

هذا الكشف الطبي والعلمي وعلاجه قد أرشد إليه الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث شريف رواه البخاري؛ إذ يقول عليه السلام: "إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعًا إحداهن بالتراب".

ويلاحظ أن هذا التشديد في النظافة الوارد في الحديث لم يرد مثله في غير الكلب، كما أنه لم يرد استعمال التراب في التنظيف إلا في ولوغ الكلب؛ وذلك للإشارة إلى العدوى المظنونة على الأقل من مرض الكلب، وأن القضاء على ميكروبه لا يكون إلا بتكرار النظافة سبع مرات "والعدد لا مفهوم له". ويزاد على ذلك استعمال التراب كمطهر، فقد ثبت أن التراب يحمل خاصية قتل هذا الميكروب، أو هو مُضعِف لقوته على الأقل.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أذكر هذا الإحصاء الذي تقدم به الدكتور أمين زاهر وكيل الزراعة المسئول عن الثروة الحيوانية إلى المسئولين، ويطلب فيه إصدار قانون بقتل الكلاب والقطط. يقول التقرير: إن الدولة تتكلف كل سنة **176.648** جنيهًا قيمة الحقن التي يعالج بها المصابون في الجمهورية العربية المتحدة، و**294.414** جنيهًا قيمة سفرهم من بلادهم إلى المستشفى وإقامتهم وتغذيتهم، و**2.355.312** جنيهًا قيمة تعطل المعقورين عن أعمالهم، و**100.000** جنيهًا تقييمًا للقدرة الإنتاجية التي يفقدها المواطنون بسبب نباح الكلاب طول الليل وإقلاق راحة الناس, و**40.000** جنيهًا قيمة خسائر الحيوانات التي تسببها الكلاب والقطط, والمجموع حوالي **3** مليون جنيهًا. ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

5- **السواك مطهر للفهم منظف للأسنان.**

الفم والأسنان من بين الأجهزة الهامة في جسم الإنسان، والفم يحتوي على الغدد اللعابية التي تلعب الدور الأول في عملية الهضم مع الأسنان التي تطحن المواد الغذائية، ويساعدها اللسان والشفتان.

والأسنان يتصل بعضها بالعين اتصالا مباشرًا وغير مباشر، إذا مرضت بعض أمراض العمى المؤقت، وأمراض الجهاز الهضمي، وأمراض الغدد الداخلية الهامة في الجسم، وكذلك الأمراض الروماتيزمية.

هذه هي أهمية الفم والأسنان التي عرفها العلم الحديث، وقد خصها التشريع السماوي بأهمية خاصة على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم حين قال: "لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة" وقد قرر الفقهاء ورجال الحديث أن المنفي هو فرضية الاستياك خوف المشقة، كما أجمعوا على سنيته عند كل صلاة لتطهير الفم وتنظيف الأسنان مما علق بها من بقايا الطعام.

ورُوي عن أبي ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تسوكوا فإن السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب، وما جاء في جبريل عليه السلام إلا أوصاني بالسواك حتى خشيت أن يفرضه علي وعلى أمتي. وإني لأستاك حتى لقد خشيت أن أحفى مقادم فمي".

فإذا طبقنا ما جاء في هذين الحديثين على النظريات العلمية الحديثة لصحة الفم والأسنان، وجدنا أن الحديثين قد وعيا وجمعا كل الوثائق العلمية الحديثة التي اكتشفها العلم في عصرنا هذا. وإن تعدد استعمال المسواك مع كل صلاة وبعد كل طعام – وأقله ثلاث مرات في كل يوم– يساعد على تنظيف الأسنان واللثة.

فإن التجارب الحديثة أثبتت أن الميكروبات التي تحتمي تحت المواد الدهنية تهاجم الأسنان في ظرف 20 دقيقة من بعد كل أكلة، وأن الطعام يبدأ في التعفن بعد ساعتين وبذلك تتأثر اللثة، وتسبب الجيوب بين الأسنان التي تسبب سقوطها بعد ذلك. هذا عدا الروائح التي تخرج من الفم وتجعل صاحبها موضع النفور والازدراء.

ووسيلة التنظيف هي السواك الذي كانت تستعمله العرب وهو يحوي مادة فعالة في التنظيف والقضاء على الميكروبات فقد نشرت بعض الصحف اليومية أن مدير معهد علم الجراثيم والأوبئة في جامعة "روستوك" بألمانيا الديموقراطية اكتشف سرًا علميًا هامًا، أثبت فيه أن السواك الذي يستعمله العرب منذ مئات السنين كفرشاة الأسنان من أرقى وسائل تنظيف الأسنان لاحتوائه على مادة فعالة قاتلة للميكروبات تفوق في مفعولها البنسلين.

وفي حكم السواك كل ما يقوم مقامه ويؤدي وظيفته كالمعاجين المختلفة التي تستعمل مع الفرشاة الخاصة ومما يتصل بالسواك من الناحية العملية "تخليل الأسنان بإخراج ما بينها من الأطعمة التي يصعب استخراجها بواسطة السواك أو الفرشاة حتى لا تبقى فضلات الطعام بين الأسنان". وفي هذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "يا حبذا المتخللون من الطعام، إنه ليس شيء أشد على الملك من بقية تبقى في الفم من الطعام".

من كل ما تقدم يتبين لنا أن ترك تخلل الأسنان واستعمال المسواك أو ما في حكمه يتسبب في:

1- ترك بقايا الطعام بين الأسنان، فتتعفن وتُولد الميكروبات الضارة بالأسنان.

2- تسرب هذه الميكروبات إلى المعدة، ثم إلى الدم فتتكاثر وتصيب الإنسان بمختلف الأمراض.

3- التهاب اللثة وتقيحها ثم تكوّن أكياس صديدية في جذور الأسنان تتحلب وتتسرب إلى الدم فيصاب الإنسان بمختلف الأمراض.

4- إصابة الإنسان بقروح الفم. فلو أخذ كل منا نفسه باستعمال السواك أو ما في حكمه واتبع أوامر الشرع الشريف، لوقى الإنسان نفسه من هذه الأمراض.

وهكذا تتجلى لنا الحكمة البالغة في حديث المسواك والذي يعتبر معجزة طبية نزلت من السماء على لسان خاتم الأنبياء.

6- حديث الثوم:

قال صلى الله عليه وسلم: "كلوا الثوم نيئًا، فلولا أن الملك يأتيني لأكلته".

يأمر الرسول صلى الله وسلم أصحابه بأكل الثوم نيئًا، ثم يقول: ولولا أن الملك يأتيني ويخاطبني وأخشى أن يتأذى من رائحة الثوم لأكلته.

فما هو السر الذي جعل الرسول عليه السلام يأمر أصحابه والمسلمين بأكل الثوم؟

لقد تولى الطب الحديث الإجابة على هذا التساؤل بما يؤيد إعجاز الحديث النبوي، ويشرح السر في أمر الرسول بذلك.

فقد أظهرت تجارب الأطباء المشهورين: كشاليه، وبيرت ولوير، ودوبريه، وغيرهم أن الثوم يذيب البلورات التي تتجمع في الجسم، ويقلل الضغط في الشرايين.

نراجع ما كتبه الدكتور عز الدين فرّاج في كتابة الخضروات وقيمتها الغذائية. وقد وصف بعض الأطباء القدامى الثوم للمصابين بتصلب الشرايين، وضغط الدم العالي. ونشرت صحيفة الأهرام تحت عنوان حقائق علمية ما يأتي:

كان الرومان القدماء يطعمون عمالهم الثوم ليزدادوا قوة، ويطعمونه لجنودهم ليزدادوا شجاعة. وقالوا إن الثوم يؤثر تأثيرًا مباشرًا على عضلات القلب فينشطها، وينشط معظم الدورة الدموية، وقد عرف فائدة الثوم أطباء العرب. يقول ابن البيطار: الثوم مدر للبول، وطارد للدود، وإنه إذا خلط بالملح والزيت أبرأ البثور، وإذا خلط بالعسل والبورق أبرأ حب الشباب وقروح الرأس، والبهق والجرب المتقرح، كما أنه عظيم الفائدة للمصابين بالربو.

ويقول الطب الحديث: إن لأبخرة الثوم والبصل نفس التأثير الناتج عن عصرهما، فقد ثبت أن ميكروبي الدفتريا، والدوسنطاريا تموت بعد خمس دقائق من تعرضها للمواد الطيارة المنبعثة من الثوم والبصل، وقد استعملت هذه الأبخرة في علاج الجروح في مستشفيات روسيا وأتت بأحسن النتائج.

كما ثبت أن مضغ الإنسان للثوم والبصل مدة ثلاث دقائق يعد كافيًا في قتل جميع الميكروبات التي تكون بالفم، وإلى التعقيم بما يحتويه كل منهما من مادة كبريتية تطهر المسالك التنفسية وتزيل البلغم. وقد حدثني أحد الأطباء الصيدليين في شأن الثوم فقال: إن أكثر الأدوية الخاصة بالقلب الثوم أهم عنصر فيها.

ولما كان الثوم يحتوي على مادة كبريتية تفوح رائحتها في المسالك النفسية فتسبب الرائحة التي قد يتأذى منها بعض الناس، فقد جاء النهي عن اجتناب من يأكله مخالطة الناس حتى تزول رائحته، ففي الحديث: "من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا، أو ليقعد في بيته".

فلا تعارض بين الأمر بأكل الثوم وبين اعتزال من يأكله من الناس، فواجب المسلم في هذه الحالة أن يبتعد عن مجالس المسلمين وحضور جمعهم وأعيادهم حتى تزول رائحته إن لم يجد ما يزيل به الرائحة بعد الاستعمال مباشرة. أما امتناع الرسول عليه السلام من أكله مطلقًا فإنه معرض لمقابلة المَلَك في كل لحظة، فهو يخشى إن أكله أن يفاجئه الملك بالوحي فيتأذى من رائحة فمه.

فمن أين لمحمد بن عبد الله هذا؟ إنه الإعجاز، وما ينطق عن الهوى.

7- **أطوار الجنين في بطن أمه.**

قال صلى الله عليه وسلم: "إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة، ثم يكون علقه مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملَك فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه، وعمله، وأجله، وشقي أو سعيد، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح".

هذا الحديث فيه تحديد لكل طور من الأطوار التي يعرض لها الجنين في بطن أمه، وبيان المدة التي يمر بها كل طور. والحديث بهذا يكون مبينًا وموضحًا للآية الكريمة التي مرت بنا سابقًا وهي قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾.

هذه المراتب ومدتها التي أشار إليها الحديث والآية الكريمة هي من خصائص علم التشريح والأجنة. فقد قرر كل منهما أن هناك أطوارًا يجب أن تمر بالجنين في بطن أمه من وقت أن يكون نطفة، ويذكرون بالتفصيل الزمن الذي يمر به كل طور معتمدين في كل ذلك على المشاهدة العملية، ولا يخرج ما ذكروه عن الحديث.

لا شك أن هذا سر من أسرار النبوة، كما كان سرًا من أسرار القرآن الكريم شاهد بما لهما من الإعجاز.

8- الاعتدال في الطعام والشراب.

قال صلى الله عليه وسلم: "نحن قوم لا نأكل حتى نجوع". ويقول: "ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه". ويقول: "جوعوا تصحوا". ويقول: "حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان ولابد فاعلاً فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه".

هذه الأحاديث وغيرها تدور حول الاقتصاد في المأكل والمشرب؛ وذلك يتحقق بأحد الأمرين: الصيام وتنظيم المأكل والمشرب، والبعد عن الإسراف فيهما والاقتصاد على مرتبة الحاجة. فقد قسم أطباء المسلمين الأولون مراتب الغذاء إلى ثلاث:

(1) مرتبة الحاجة.

(2) مرتبة الكفاية.

(3) مرتبة الفضلة.

وأفضل مراتب الغذاء المرتبة الأولى، وأقبحها المرتبة الثالثة؛ لأن من يصل إليها يكون قد عرّض نفسه للأمراض المختلفة.

والطب الحديث يعلن هذا، فقد ثبت للمشتغلين بعلاج الأمراض منذ وجد علم الطب أن للأغذية دخلاً كبيرًا في إصابة الأجسام بالأدواء المختلفة؛ لا من ناحية الإفراط فيها فحسب، ولكن من ناحية التسمم بالعناصر الداخلة في تركيبها أيضًا.

كما تقرر علميًا أن الأجسام البشرية إذا لم يراع في تغذيتها الاعتدال وتخير ما يناسبها من المواد فسدت أعضاؤها، وتعبت شرايينها، وسببت لها أعراضًا ثقيلة من الألم وضعف الذاكرة. كما قرر العلماء أن الإنسان متى وصل إلى هذه الحالة أو بعضها كان أحوج ما يكون إلى الإمساك عن الطعام أيامًا متوالية، بل أسابيع لطرد هذه المواد الدخيلة على الجسم، أو على الأقل اتباع نظام خاص في نوع الأكل وزمنه؛ وهو المعروف "بالرجيم". هذا الذي أثبته الطب قديمًا وحديثًا في علاج الكثير من الأمراض بالصوم، والإقلال من الطعام هو الذي أثبتته الأحاديث السابقة كما أثبته من قَبل القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنًا. فهل لقومي أن يرجعوا إلى رشدهم، ويستمعوا إلى تعاليم دينهم وسنة نبيهم، ويحافظوا على صيام شهرهم حتى لا يصدق عليهم قول الله تعالى:﴿ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾.

وأكتفي بهذا القدر من الأحاديث الطبية، وقد سبق أن ذكرت طرفًا آخر من الأحاديث الطبية في الوصفات العلاجية.

أشعار العرب والمسلمين في الطب

من دلائل شغف العرب والمسلمين الذين اشتغلوا بالطب أنهم نظموا فيه القصائد الشعرية والأراجيز، كما كان الشاعر المحب منهم يمزج في شعره بين الحب والطب.

يقول الشاعر العربي متغزلا:

رآني الله يا سـلمى حياتي	وفي يوم الحساب كما أراكِ
إلى كم تهجرين فتى معنى	إذا خدرت له رجل دعاك

ويقول الآخر:

ما كان في الرأس أخرجه بغرغرة	فالقيء يخرج ما في الصدر من عفن
وكل ما كان في صلب فذلك	لا يسيل إلا بأخلاط من الحقن

ويقول الآخر:

على الريق في البرد أحس ماء ساخنًا	وفي الصيف ماء باردًا حين تصبح
وذلك فيما قيل فيه مصحة	وذاك على إدمانه الجسم يصلح

ويقول الشاعر المصري ابن رقيقه:

تــوق الامــتــلاء وعــد عــنــه　　　وإدخــال الطعــام على الطعـام

وإكــثــار الجــمــاع فــإن فــيــه　　　لمــن والاه داعــيــة الســـــقــام

ولا تشـــرب عقيـب الأكـل مـاء　　　فتســـلم من مضـــرات عظـام

ولا تــتــحــركــن عــقــيــب أكــل　　　وصـــيّر ذاك بـعـد الانهضـــام

وفصد العرق نكب عنه إلا　　　لذي مرض رطيب الطبع حام

وخل السكر واهجره مليًا　　　فإن السكر من فعل الطغام

الطب في العصور العربية

الطب في الدولة الأموية:

استمر المسلمون في عهد الخلفاء الراشدين يرفعون من منزلة الطب، ويتحدثون بما ورد منه على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وما هو مأثور من أقوال الأطباء في الجاهلية، ويتمسكون بالنصائح الطبية والعمل بها.

فلما كانت دولة بني أمية – وكانت مظهرية الملك فيها أوضح من مظهرية الخلافة– اتخذوا لأنفسهم أطباء خصوصيين، واعتنوا بالطب والأطباء وبناء دور المرضى. وقد حدثنا التاريخ أن معاوية رضي الله عنه اتخذ لنفسه طبيبًا خاصًا نصرانيًا يدعى "ابن أثال".

فلما كان عهد الوليد بن عبد الملك وجه عنايته بالمصابين بالجذام، والعمى، والأمراض المزمنة، ورتب لهم من يعني بأمرهم. وكان له الفضل في بناء أول مؤسسة صحية في الإسلام. وجعل فيها الأطباء. ورتب لهم النفقات. وأمر بحبس المجذومين خوف انتشار العدوى وأجرى عليهم الأرزاق. وكان الأطباء إلى ذلك العهد يطيبون بالطب الخشن الذي كان مستعملاً في الجاهلية:

وكان الطب في ذلك الوقت محصورًا في اليهود والنصارى، ولم يكن المسلمون قد رغبوا فيه، أو في غيره من العلوم لاشتغالهم بالفتوحات والحروب.

فلما بنى الوليد مؤسسته الصحية واحتاج إلى الأطباء عمل بالحديث الوارد عن الرسول صلى الله عليه وسلم القائل: "استعينوا على كل صنعة بصالح أهلها، وبالحديث الآخر: "خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت". فأخذ يبحث عن أمهر الأطباء في زمانه فقيل له أن جميعهم من النصارى واليهود، فقال: إن الحارث بن كلدة كان نصرانيًا، وقد سكن المدينة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر من به علة أن يأتيه فيسأله ما به من مرض. وإن سعد بن أبي وقاص وهو من أجلاء الصحابة أُرسل إليه يستوضحه في مرض نزل به، وهذا دليل على أن استخدام غير المسلمين في مثل ذلك جائز.

فاستقدم الوليد ومن جاء بعده من الخلفاء الأمويين من أطباء النصارى واليهود، وكانوا يتولون في الغالب رياسة الطب، وبعضهم تعلم اللغة العربية ليشتغلوا بالترجمة في دور الخلفاء تقربًا من دولة العرب. وأول من تعين في تلك المناصب منهم راهب رومي كان عالمًا بصناعة الطب يقال له "موريانوس": وهو الذي علم صناعة الطب والكيمياء ليزيد بن معاوية، ثم لأبي هاشم خالد بن يزيد بن معاوية. وتلاه طبيب مترجم اسمه "اسطفانوس": وهو أول المترجمين لخالد بن يزيد، ثم جاء من بعده "ماسرجويه": وهو يهودي سرياني اللغة، وكان بارعًا في العلوم الطبية، وقام بترجمة كتاب في الطب من السريانية إلى العربية كان قد ألفه راهب نصراني في الإسكندرية هو القس "أهرون"، وهو أول كتاب علمي بلغة العرب وكان ذلك في خلافة مروان بن عبد الحكم. ثم جاء بعد ذلك "ثيوذكس"، و"ثيوذون": وهما طبيبان روميان كانا في خدمة الحجاج بن يوسف الثقفي حاكم البصرة في خلافة عبد الملك بن مروان.

الطب في الدولة العباسية:

اشتهرت في صدر الدولة العباسية أسرة مسيحية عرفت بأسرة "بختيشوع" أولهم "جاورجيوس بن بختيشوع" دخل في خدمة الخلفاء العباسيين في عهد المنصور (ثاني الخلفاء العباسيين) حين أصيب بمرض عجز عن معالجته الأطباء الذين كانوا في بلاطه, فذكر أمامه هذا الطبيب فاستدعاه من (جنديسابور), فجاء إلى بغداد ومعه تلميذه "عيسى بن شهلاثا" فلما مَثِل بين يديه دعا له بالفارسية والعربية؛ فتعجب المنصور من حسن منطقه ومنظره وأمره بالجلوس، ثم سأله عن أشياء أجاب عليها بسكون وهدوء ورزانة، ثم أخبره عن مرضه فقال: إنني أدبرك بمشيئة الله وعونه. فطيبه حتى شُفي من مرضه، ففرح به وأكرمه، وأنعم عليه بثلاث جواري وثلاثة آلاف دينار. فرد الجواري وقال: إن ديننا لا يقبل الزواج بأكثر من واحدة.

وفي سنة 153هـ مرض جاور جيوس واستأذن في الانصراف إلى بلده، فعرض عليه المنصور الإسلام قائلاً: يا حكيم اتق الله وأسلم، وأنا أضمن لك الجنة، فقال: قد رضيت حيث آبائي في الجنة أو في النار. ثم بعد وفاته قام ابنه "بختيشوع" بما كان يقوم به أبوه، وصار الطبيب الخاص لهارون الرشيد. وفي أيامه ظهر يوحنا بن ماسويه الطبيب البارع صاحب المؤلفات الشهيرة التي منها كتاب علم التشريح، والذي يُروى عنه أنه حين أراد إجراء بعض الاختبارات التشريحية عزم على التضحية بابنه، فمنعه الخليفة المعتصم بالله وحال بينه وبين هذا، وبعث إليه بقردة من حديقته. وبعد وفاة بختيشوع قام ابنة (جبريل) وكان طبيبًا بارعًا. يروي ابن أبي أصيبعة في كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء حادثة جارية من محظيات الرشيد كانت قد تمطت فرفعت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها، وعالجها الأطباء بدون جدوى، واستدعى لها جبريل فطلب أن يؤتى بها إليه وسط الجمع، كلما حضرت أسرع إليها ونكس رأسه وأمسك بذيل ثوبها كأنه يريد أن يكشفها، فانزعجت من ذلك وكان من شدة الحياء أن استرسلت أعضاؤها وبسطت يدها إلى أسفل وأمسكت ذيلها وبرئت.

وقد بقى الطب في هذه الأسرة كما بقيت عند الخلفاء إلى سنة 450هـ؛ أي مدة ثلاثمائة سنة, وفي هذه المدة اشتهر غير هؤلاء الأطباء من الهنود، والقرى واليهود والنصارى عند الخلفاء منهم: صالح بن بهلة، وعبودي بن زيد، وموسى بن إسرائيل الكوفي، وأسرة الطيفوري، وزين الدين الطبري اليهودي، وأبو يوسف يعقوب بن إسحاق السباح الكندي المسيحي، وفسطة بن لوقا, ويحيى بن ماسوية الذي كان رئيس بيت الحكمة الذي أنشأه الخليفة المأمون، ومن مؤلفاته كتاب البرهان، والبصيرة، والحميات، والفصد, والحجامة، والجذام، والأغذية، وكتاب المعدة, وكتاب في الأدوية المسهلة. وأشهر هؤلاء أبو زيد حنين بن إسحاق العبادي الطبيب المشهور، وهو تلميذ يحيى بن ماسوية، وكان في أيام الخليفة المأمون ولد سنة 194، وتوفى سنة 260هـ وكان رئيسًا لمدرسة المترجمين.

ومن مؤلفاته: كتاب في الأغذية، وكتاب في تدبير الناقهين، وكتاب في الأدوية المسهلة، وكتاب أسماه: العشر مقالات في العين وقد ترجمه "ما يرهوق" إلى الإنجليزية.

وكان له ولدان، أحدهما: "أبو يعقوب إسحاق" وكان فيلسوفًا، ومؤلفًا ومترجمًا وله مصنفات مفيدة في الطب، نظير مؤلفات أبيه.

والثاني: "داود"، وكان كذلك ماهرًا في علم الطب.

ومنهم: إبراهيم بن ثابت بن قرة الحراني، وكان صابئي المذهب مثل أبيه، كما كان من حذاق الأطباء. وابن أخيه – أبو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة الحراني– وكان في بغداد أيام معز الدولة ابن بوية، وكان طبيبًا عالـمًا، وله كتاب عن العين والبصر.

وظهر أيام المقتفي لأمر الله العباسي أمين الدولة: أبو الحسن هبة الله بن صاعد، المعروف بابن التلميذ النصرانى. يقول ابن خلكان في ترجمته: كان هبة الله أبقراط عصره، وجالينوس زمانه، ختم به هذا العلم، توفى ببغداد سنة 560هـ.

ومنهم: أوحد زمانه، أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكان الحكيم المشهور، صاحب كتاب "المفيد" في الحكمة، وكان يهوديًا ثم أسلم في آخر عمره.

هؤلاء هم الذين اشتهروا، ودخلوا في خدمة الخلفاء، واشتغلوا بالطب في صدر الإسلام من غير المسلمين. أما المسلمون: فقد كانوا في شغل شاغل عن الطب، بالفلسفة وغيرها من العلوم العقلية والجدلية؛ بسبب ما قام بينهم من الأحزاب الدينية والسياسية. فلما سكنت تلك الثورة عمدوا إلى الطب، فاشتغلوا به وتوسعوا فيه، وألفوا فيه المؤلفات الضخمة، وزادوا في كثير من الحقائق، وكانوا يعتمدون في كل ما كتبوه على مؤلفات أبقراط وجالينوس بنوع خاص.

وكانوا يعرفون أشياء كثيرة، تناولوها عن غير اليونان، كصناعة التقطير والتخمير، ومما زادوه في الطب: وصف الجدري وتطعيمه. ويقال: إن نساءهم قديمًا كن يعرفن التطعيم به.

وهم أول من وصف الحصبة، وزادوا في المواد الطبية كثيرًا على ما وصفه اليونان كالسنا، والرواند، والتمر هندي، وجوز الطيب، وكبش القرنقل.

وهم أول من استحضر المياه والزيوت بالتقطير والتصعيد، وأول من استعمل السكر في العلاج، وكان غيرهم يستعمل العسل. وهم أول من جعل الوصفات العلاجية على قاعدة، وأول من وجه الفكر إلى شكل الأظافر في المسلولين، وأول من وصفوا علاج اليرقان، والهواء الأصفر، واستعملوا الأفيون بمقادير كبيرة في علاج الجنون، ووصفوا صب الماء البارد لعلاج قطع النزيف الدموي، وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة: برد المقاومة الفجائي. ووضعوا إبرة الماء الأزرق في العين، وأشاروا إلى عملية تفتيت الحصاة، وطريق الشق تحت الجلد، واستعملوا البنج، وهو: تخدير المريض لإجراء العمليات الجراحية، وكانوا يستعلون لذلك "الشيلم".

وها كم أسماء من اشتهر منهم:

أشهر الأطباء المسلمين ومؤلفاتهم:

1- يزيد بن معاوية الأموي الذي توفى سنة 85هـ، وكان أعلم قريش بالطب، وأقدم مَن ظهر من العرب المسلمين في علم الطب والكيمياء، وقد تتلمذ على موريانوس الراهب، وألف ثلاثة كتب، يتضمن الأول: حكايته مع أستاذه موريانوس، والثاني صورة ما تعلمه منه، والثالث تفسير الرموز التي أشار إليها.

2- أبو هاشم- خالد بن يزيد بن معاوية- .

3- خالد بن يزيد بن مروان، الذي كان يسمى بحكيم آل مروان.

4- أحمد بن إبراهيم طبيب الخليفة يزيد بن عبد الملك الأموي، الذي توفى في أوائل القرن الثاني للهجرة، وله كتاب في الطب، استخلصه من كتب أبقراط، وسماه "أصول الطب"، كما ألف رسالة في النبات المستعمل في الطب.

5- أبو بكر محمد بن زكريا الرازي المتوفى سنة 320هـ، وكان ماهرًا في الطب، والمنطق، والهندسة، والموسيقى، وكان رئيس الأطباء في بيت الشفاء ببغداد، بعد أن نظم مارستان الري أخذ الطب عن الحكيم أبي الحسن بن زيد الطبري، صاحب كتاب "فردوس الحكمة".

ومن مصنفاته في الطب:

كتاب "الحاوي" ويقع في ثلاثين مجلدًا، وله رسائل في الأعصاب والجدري والحصبة، ويعتبر الرازي: أول من وصف بدقة ووضوح مرض الجدري والحصبة؛ ولهذا ترجمت رسائله في الجدري إلى اللغة اللاتينية في البندقية سنة **1498**هـ، وقد قيل: كان الطب معدومًا فأحياه جالينوس، ومتفرقًا فجمعه الرازي، وناقصًا فكمله ابن سينا. ومن مؤلفات الرازي – عدا ما تقدم– كتب الجامع، والأعصاب، والمنصوري، وكان قد ألّف كتابه الأخير لأبي صالح منصور بن نصر الساماني وسماه باسمه، وجمع فيه العلم والعمل.

ومن كلام الرازي في الطب: إذا قدرت أن تعالج بالأغذية فلا تعالج بالأدوية، وإذا قدرت أن تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب، وإذا كان الطبيب عالمًا والمريض مطيعًا فما أقل مكث العلة.

6– ابن سينا، وهو الشيخ الرئيس – أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا البخاري– ولد سنة **170** وتوفى سنة **228**هـ، وهو عمدة الحكماء وشيخ العلماء، وأرسطو الإسلام.

مؤلفاته في الطب:

1- القانون، ويقع في أربعة عشر جزءًا.

2- الشفاء، ويقع في ثمانية عشر جزءًا.

3- الألفي.

4- الفوالج.

5- الأدوية القلبية.

6- رسالة في الهندباء.

7- رسالة في النبض.

8- منظومة في الطب.

وقد قسم في كتابه - القانون- الألم إلى خمس عشرة درجة، ثم سجل لعلاج هذه الأمراض ما يزيد على 760 دواء، كما تعرض فيه لكثير من أمراض الحب وكيف تعالج.

ويروى عنه في هذا المقام: أنه عرض عليه يومًا أحد أقرباء الحاكم في إقليم مجاور مريضًا بداء أعيى الأطباء، وفحص ابن سينا المريض فلم يجد لديه علة يصح أن يشكو منها، فطلب استحضار شخص يعرف كافة بلاد الإقليم وقراه؛ لكي يعدد أسماءها على مسمع من المريض، وأمسك ابن سينا بيد المريض يجبس نبضه، فلاحظ اضطرابًا في النبض عند ذكر بلدة معينة؛ وعند ذلك طلب ابن سينا شخصًا يعرف كل الأحياء والشوارع والمنازل في تلك البلدة، واستمر يجبس نبض المريض، فلاحظ عودة اضطراب النبض عندما ذكر الشخص اسم شارع معين، وتكررت ظاهرة الاضطراب في نبض المريض عند ذكر منزل معين، ثم عند ذكر فتاة معينة من سكان هذا المنزل، وعند ذلك قال ابن سينا: إن الغلام عاشق للفتاة المذكورة، وعلاجه الزواج منها، وتم الزواج وكان الشفاء.

ويعتبر كتاب القانون دائرة معارف طبية ما برح نبراسًا يستضئ به أساتذة الطب في أوربا وأسيا مدة ستة قرون، وقد ترجم إلى أكثر لغات أوربا.

7- أبو علي – يحيى بن جزلة- المتوفى سنة **497**هـ، وكان يطبب أهل محلته ومعارفه بلا أجر، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية بغير عوض، ويتفقد الفقراء ويحسن إليهم.

مؤلفاته:

1- المنهاج الذي رتبه على الحروف الهجائية، وجمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية.

2- تقويم الأبدان.

3- منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان.

4- الإشارة في تلخيص العبارة.

5- رسالة في مدح الطب وموافقته للشرع.

8- الإمام فخر الدين الرازي المتوفى سنة 606هـ. بمدينة هرات.

مؤلفاته في الطب:

- شرح الكليات للقانون، شرح الإشارات لابن سينا.

- الملخص.

- شرح عيون الحكمة.

9- الفارابي: المتوفى بدمشق سنة 339هـ، وتعتبر شهرته في الطب أقل من شهرته في غيرها من العلوم الأخرى.

10- عيسى بن موسى: ويعتبر من أشهر أطباء العيون، عاش ومارس الطب في بغداد في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي. وكان كتابه "تذكرة الكحالين" خير ما كتب في موضوع العيون، وقد اعتمد عليه جميع أطباء العيون، وأهملوا كل مؤلف سواه.

11- لسان الدين بن الخطيب: الذي أثبت أن مرض الطاعون ينتشر بواسطة العدوى؛ وذلك في عصر لم تكن فيه الجراثيم والميكروبات المعدية معروفة لأحد.

12- الطبري: وهو أول من اكتشف الحشرة التي تسبب داء الجرب.

13- أبو الحسن – علي بن النفيس– وهو أول من وصف الدورة الدموية الرئوية قبل أن يكتشفها "سرفينوس" البرتقالي بثلاثة قرون، وهو صاحب كتاب "شرحة نشر" القانوني في الطب.

14- أبو يوسف الكندي الذي ذاعت شهرته كطبيب، وفيلسوف، وفلكي، ورياضي في عصر المأمون والمعتصم اللذين اتخذاه طبيبًا لهما. ومن آثاره الخالدة: ترجمة كتاب المجسطي لبطليموس عن اليونانية، كما راجع العربية لأرسطو، ويقال: إنه ألف أكثر من مائتي كتاب، منها اثنان وعشرون في الطب.

كما حاول تأسيس طريقة مضبوطة في فن تركيب الأدوية.

الطب في الأندلس:

لم يكن الطب في الأندلس بأقل منه في العصر الأموي والعباسي؛ فقد حدثنا التاريخ الطبي عن نهضة الطب في بلاد الأندلس، وكيف ساير تقدمه تقدم العلوم الأخرى المختلفة، وازدهار الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس.

وقد استفاد الأوربيون من كتب الطب الأندلسية، وترجموا أغلب هذه الكتب إلى اللغة اللاتينية واليونانية، وكانت تدرس علوم الطب في جامعات أوروبا على أساس المؤلفات الإسلامية الطبية.

وأول من اشتهر في الطب في بلاد الأندلس:

1- أحمد بن إياس القرطبي، وكان ذلك في عهد الأمير محمد.

2- يحيى بن إسحاق، وكان طبيبًا للأمير عبد الله بن محمد، وقد استوزره الخليفة عبد الرحمن الناصر، وله في الطب مؤلفات كثيرة.

3- أبو عبد الله – محمد بن عبدون القرطبي- والذي رحل إلى مصر سنة 337هـ ونظم مارستان مصر "المستشفى".

4- الوزير – أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد- مؤلف كتاب "الأدوية المفردة". ويقول عنه المقري: إنه كان آية في الطب وغيره، وقد جمع في كتابه السابق الأدوية المفردة ورتبها على حسب قوتها ودرجتها، وكان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية، وإذا اضطر إلى التداوي بالأدوية فلا يرى التداوي بالمركبة، ما وجد سبيلاً إلى الأدوية المفردة.

5- أبو القاسم الزهراوي، وهو طبيب عبد الرحمن الثالث، وشيخ جراحي الأندلس، ولد في الزهراء قرب قرطبة في القرن الخامس الهجري، وقد نبغ في الطب والجراحة، وترجمت كتبه فيهما إلى اللاتينية.

أشهر مؤلفاته:

1- رتبة الحكيم.

2- غايات الحكيم، وقد ترجمهما إلى اللاتينية الملك ألفونسو في القرن الثالث عشر.

3- التعريف لمن عجز عن التأليف.

4- كتاب في أمراض النساء.

5- كتاب في الجراحة. **6**- كتاب في الأدوية، وكلاهما ترجم إلى اللاتينية ودرس في جامعة أكسفورد.

وهو أول من ربط الشرايين لوقف النزيف، وأول من استعمل الحرير وأوتار العود بهيئة خيوط للربط في الجراحة، كما أدخل استعمال محلول الملح في غسل الجروح. ويقول عنه الدكتور نجيب محفوظ: إنه كان فخر الجراحة العربية.

6- أبو داود سليمان بن حسان المعروف بابن جلجل، وهو الذي شرح أسماء الأدوية المفردة وأوضح ما غمض منها في كتابه "تفسير أسماء الأدوية المفردة".

7- ابن البيطار عبد الله بن أحمد الملقب بضياء الدين، وقد كان من أنبغ الأطباء في عصر الموحدين الذي يعتبر بحق العصر الذهبي لعلوم الطب. وقد رحل إلى مصر في أيام الملك الكامل وعين طبيبًا في خدمته، ثم طبيبًا للملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد عنى بدراسة النبات والأعشاب بمصر والشام وله عدة مصنفات في الحشائش لم يسبق إليها، منها:

1- كتاب "الجامع في الأدوية المفردة".

2- وكتاب المغني في الأدوية المفردة.

3- الأفعال الغريبة والخواص العجيبة.

وتوفى بدمشق بعد أن تجرع عقارًا قاتلا فمات من ساعته.

8- أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر من أشراف أشبيلية، ومن أسرة اشتهرت بالطب، وكان جدهم الأكبر عبد الجبار بن أبي سلمة القرشي الزهري قد دخل بلاد الأندلس مع موسى ابن نصير واستقر أعقابه في أشبيلية، وقد مال ابن زهر إلى التفنن في أنواع التعليم من الطب وغيره، كما رحل إلى بلاد الشرق.

9- أبو العلاء زهر بن عبد الملك، كان عالمًا في الطب، عارفًا بالعلاجات الدقيقة. واستدعاه ابن المؤمنين يوسف بن تاشقين إلى مراكش لعلاجه.

10- عبد الملك بن أبي العلاء: وكان من أنبغ الأطباء والمؤلفين في علم الطب، وقد ألف الكتب الآتية:

1- التيسير.

2- الأغذية.

3- الترياق السبعين.

11- أبو بكر محمد بن أبي مروان بن زهر: هو طبيب أشبيليه الأوحد، استوزره خليفة الوحدين أبو يوسف يعقوب المنصور، وقد توفى سنة 595هـ، وأمر أن يكتب على قبره الأبيات الآتية:

تأمل بفضلك يا واقفًا	ولا حظ مكانًا دفعنا إليه
تراب الضريح على صفحتي	كأني لم أمش يومًا عليه
أداري الأنام جذار المنون	فها أناقد صرت رهنًا لديه

12- أبو محمد عبد الملك المشذوبي الذي ذاع صيته في الطب في عهد دولة الموحدين.

13- أبو العباس بن الرومية الأشبيلي، وله كتاب قيم في الأدوية المفردة.

14- ابن رشد الفيلسوف الأندلسي المشهور: ولد في قرطبة سنة **514**، وتوفي سنة **595**هـ وقد اشتهر بالطب كما اشتهر بغيره وله في الطب المؤلفات الآتية:

1- ثلاثون مؤلفًا في شرح كتب جالينوس.

2- شرح أرجوزة ابن سينا في الطب.

3- تلخيص كتاب الاستقصائيات لجالينوس.

4- تلخيص كتاب المزاج.

5- تلخيص كتاب العلل والأمراض.

6- تلخيص كتاب الحميات.

7- تلخيص كتاب الأدوية المفردة.

8- تلخيص كتاب حيلة البرء لجالينوس.

وقد ساهمت مدرسة الترجمة بطليطلة في القرن الثاني عشر بنصيب في ترجمة كتب الطب الأندلسية التي تجاوزت شهرتها آفاق أوروبا، كما درست علوم الطب في الجامعات الأوروبية على أساس المؤلفات الأندلسية وغيرها.

الطب في العراق:

اشتهر في العراق كثير من الأطباء نذكر منهم.

1- الرئيس ابن سينا البخاري وقد تحدثنا عنه تحت عنوان أشهر الأطباء المسلمين. وقد سبق أطباء العرب جميعًا في معرفة التأثير المتبادل بين الأحوال النفسية والأمراض الجنسية، وقد عنى بمرض العشق وطرق علاجه فقال: إن العشق مرض وسواس يشبه "الماليخوليا" يجلبة الإنسان إلى نفسه بتسليط فكرة على استحسان بعض الأمور؛ كالصور، والشمائل، ثم تعينه على ذلك شهوته ويتغير إلى فرح وضحك، أو إلى غم وبكاء عند سماع الغزل، ولاسيما عند ذكر الهجر والنوى، ويكون نبضه مختلفًا كنبض أصحاب الهموم.

ويعتبر ابن سينا أول من اكتشف مرض السل الرئوي، ووصف الشلل النصفي، وعالج الأمراض العصبية والعقلية، كما وصف عضلات العين ووظائفها.

2- علي بن عباس: وهو الذي ألف الكتاب "الملكي" لعضو الدولة وهو مجموعة شاملة للطب النظري والعملي في عشرين مجلدًا، كما أثبت أن الطفل لا يخرج من تلقاء نفسه أثناء الوضع بل نتيجة تقلصات الرحم.

3- علي بن عيسى: أشهر أطباء العيون في عصره، وقد شرح في مؤلف له 130 نوعًا من أمراض العيون، ووصف لعلاجها 143 دواء، وله رسالة في تشريح العين وأمراضها الظاهرة والباطنة، وقد ترجمت هذه الرسالة إلى اللغة اللاتينية، وكان لها أثر بالغ في أوروبا.

4- ابن بطلان المعروف بالمختار بن الحسن بن عبدون، وكان معاصرًا لعلي بن رضوان الطبيب المصري، وقد سافر إلى مصر لمشاهدته سنة 441 وأقام بها ثلاث سنوات في عهد المستنصر بالله الفاطمي، وفي آخر أيامه سئم كثرة الأسفار فآثر العزلة ونزل ببعض أديرة أنطاكية، وترهب وانقطع للعبادة إلى أن توفى سنة 444، ولم يتخذ امرأة، ولم يترك ولدًا. وفي هذا يقول:

ولا أحد إن مت يبكي لميتتي سوى مجلس في الطب والكتب باكيًا

مؤلفاته: بلغت مؤلفاته ثلاثة عشر مصنفا أشهرها ثلاثة.

1- تقويم الصحة في قوى الأغذية ورفع مضارها (مخطوط).

2- رسالة في اشتراء الرقيق.

3- رسالة دعوى الأطباء.

5- يوحنا بن ماسوية الذي ولد في جنديسابور ثم عين رئيسًا لمدرسة الطب في بغداد وكان من أطباء هارون الرشيد.

6- حنين بن إسحق الفسطوري: ولد ببغداد، وسافر إلى بلاد اليونان، وتعلم العربية بالبصرة. ويعتبر كتابه الذي استعرض فيه طريقة جالينوس في الطب من أهم الكتب المدرسية التي قامت عليها دراسة الطب في أوروبا في العصور الوسطى، وقد ترجم إلى اللاتينية.

الطب في مصر

العصر الفاطمي:

بعد أن استتب الأمر للفاطميين في مصر قاموا ببناء دار الحكمة، فكانت اللبنة الأولى في نهضة العلوم المختلفة، وقد نبغ كثير من أبناء هذه الدار في الطب والصيدلة نذكر منهم:

1- أبو عبد الله بن سعيد التميمي وله في الصيدلة كتاب "المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى المفردات".

2- أحمد بن يحيي البلدي، وألف في الطب كتاب "تدبير الحبالى والأطفال".

3- أبو القاسم عمار بن علي الموصلي، وألف كتابًا في طب العيون أسماه "المنتخب" في علاج العيون.

4- علي بن رضوان - وكان معاصرًا للمستنصر بالله الفاطمي- وله في الطب شهرة اعترف بها كثير من أطباء عصره.

العصر الأيوبي:

ازدهر الطب في العصر الأيوبي وتعددت فروعه وكان هناك أطباء للأمراض الباطنية وأطباء لأمراض العيون، وكان طبيب العيون يسمى "كحالة". كما كان هناك جراحون وإخصائيون في علاج العظام، وكان طبيب العظام يسمى "مجيرًا".

وقد تأثر الطب في الدولة الأيوبية بالثقافة اليونانية إلى حد ما، وكانت كتب جالينوس تدرس في ذلك الوقت وأخصها كتاب "منافع الأعضاء"، وكتاب "الفيض"، وكتاب "المزاج".

كما اهتمت الدولة الأيوبية بالطب البيطري لكثرة استخدام الخيول في الحروب وغيرها. وقد اشتهر من الأطباء في هذا العهد:

1- أحمد بن الحاجب: وكان من أطباء صلاح الدين الأيوبي.

2- أحمد بن خليد الفافقي المتوفى سنة 560هـ، وقد ألف كتاب "جامع المفردات".

3- أبو الفرج غرينوس المعروف بابن العبري المتوفى سنة 684هـ.

4- أسامة بن منقذ الذي ألف كتاب "الاعتبار" في الطب.

5- محمود بن عمر بن رقيقة: وكان ذا قدرة على نظم الكتب الطبية رجزًا في سهولة ويسر وسرعة تدعو إلى الدهش.

6- ثم جاء من بعد هؤلاء ابن النفيس أبو الحسن على، وكان رئيسًا لمستشفى قلاوون، وهو أول من وصف الدورة الدموية الرئوية قبل أن يكتشفها "سرفينوس" البرتغالي بثلاثة قرون، وهو صاحب كتاب "شرحة نشر".

7- أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري: حضر وألف في علاج البواسير، وعلم التشريح، وعلاج لسع العقرب. ويقول في بعض مؤلفاته: أخذت هذا عن سيدي أحمد الغرافي الحكيم بدار الشفاء، وقرأت عليه كتاب الموجز، واللمحة العفيفية في أسباب الأمراض وعلاجها وعلاماتها، وبعضًا من قانون ابن سينا ومنظومته الكبرى.

المرأة والطب

لما كانت العصور الأولى ترى أن المرأة وظيفتها البيت حيث تقوم على شئون زوجها، وتربية أولادها، وإصلاح بيتها، ورعاية شئونها؛ فقد قل اهتمام المرأة بمزاولة الطب وغيره من مختلف العلوم. وتاريخ العصور الإسلامية يكاد يخلو من الحديث عن المرأة كطبيبة، إلا ما جاء في بعض كتب السيرة والحديث في شأن السيدة عائشة أم المؤمنين في صدر الإسلام.

فقد روى عن عروة أنه قال: "ما رأيت أعلم بالطب من عائشة، فقلت: يا خالة من أين تعلمت الطب؟ قالت: كنت أسمع الناس ينعت بعضهم لبعض فأحفظه".

وفي رواية أخرى عنه قال: "قلت لها يا أماه لا أعجب من فقهك، أقول زوجة رسول الله ولا أعجب من علمك بالشعر وأيام الناس، أقول بنت أبي بكر وكان من أعلم الناس به، ولكن أعجب من علمك بالطب فكيف هو؟ وأين هو؟ فضربت على منكبيه وقالت: أي عريه، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسقم في آخر عمره، فكانت تقدم عليه وفود العرب من كل وجه، فتنعت له النعوت، وفي لفظ آخر: وكان أطباء العرب والعجم ينعتونه، وكنت أعالجها فمن ثم".

أما في العصور الإسلامية المتأخرة فقد حدثنا تاريخ الأندلس بأنه قد برع فيها كثير من النساء في الطب والجراحة، وكن يعملن العمليات الجراحية فيما يختص بالنساء، ومنهن:

1- شقيقة الحافظ بن زهر وبناتها، وكن قد تخصصن في طب النساء والأطفال، وكن الوحيدات المسموح لهن بمعالجة حرم المنصور بن أبي عامر وارث الخلافة الأموية بالأندلس.

2- ومنهن زينب طبيبة بني أود، وكان أخص ما برعت فيه علاج العيون بالجراحة، وإجراء العمليات المختلفة.

الصيدلة:

فن الصيدلة قديم فقد عرفه قدماء المصريين، فكان الكهنة يعرفون فائدة النباتات ويستخدمونها في تعزيز تعاويذهم، ويلمون بقدر كبير من الكيمياء يسمح لهم بتحضير المراهم، والمداد، والزجاج، بل إن كلمة كيمياء أصلها "شيما" وهي كلمة مصرية قديمة لها نفس المعنى.

وإلى الكهنة يرجع الفضل في إدخال كثير من الوصفات الصحية بحجة الدين مثل: حظر أكل الخنزير، والبجع، والصيام أربعين يومًا كل عام مع تجنب العلاقات الجنسية، وتعاطي شرب "الفامكى" مرة كل شهر، والاستحمام مرتين كل يوم.

وكانوا يراعون في تركيب الأدوية الدقة المتناهية في الوزن، فقد وجدت مثاقيل يزن بعضها **0.2** من الجرام وكانوا يسمون بعض العقاقير أسماء سرية لا يعرفها إلا فئة مختارة.

فعرفوا استخدام الفيروز، والذهب، والفضة للطلاسم، والشب، وكربونات النشادر، والجير، وصدأ النحاس، وأملاح الحديد، والمانيزيا، وسلفات الزئبق، وأملاح الرصاص، والبوتاس، والصودا. كما عرفوا فوائد نباتات الخردل، والخشخاش، وخانق الذئب، والصبر، واللوز، والشبت، والينسون، وشعر الجن، والبابونج، والخروب، والقرطم، والحبهان، والكمون، والهندباء، والحلبة، والتين، والعرعر، والسكران، والكتان، والزئبق، والخردل، والعفص، وجوزة الطيب، وحبة البركة، والأفيون، والبلح الفجل، والخروع، والزعفران.

ومن المواد الحيوانية عرفوا العسل، ولبن البقرة، ولبن الحمارة، ولبن الماعز، ولبن المرأة، وكبد الثور، والعجل، والخنزير، ورأس بعض الأسماك وصفراءها.

وكانوا يصفون العقاقير شرابًا، أو فعلية، أو منقوعة، أو حبوبًا، أو مسحوقًا.

كما كانوا يستخدمون اللبخ، واللزق، والنقط، والمراهم، والسعوط، واستخدموا اللبوس، والغسول المهبلي مستعينين بآلة على هيئة قرن مجوف ينتهي بطرف مدبب يشبه منقار الطير.

كما اكتشفوا العلاج بالحقن الشرجية عندما لاحظوا أن طير أبو منجل يدخل منقاره الطويل في شرجه لتنظيف أمعائه.

وكان الطبيب يعد الأدوية بنفسه، وكانوا يعتقدون في السحر وأن كل شيء في الطبيعة مشحون بقوة سحرية وله قوة خفية خاصة.

الفهرس

الإهداء 4

تقديم 5

مقدمة 15

الطب عند الأمم القديمة 16

الطب عند قدماء المصريين 17

أشهر أطباء العرب في الجاهلية 32

الطب في الإسلام 39

الإسلام والطب الرياضي 64

الطب العلاجي 69

الطب في العصور العربية 147

الفهرس 179